الأيام المضيئة

قصة

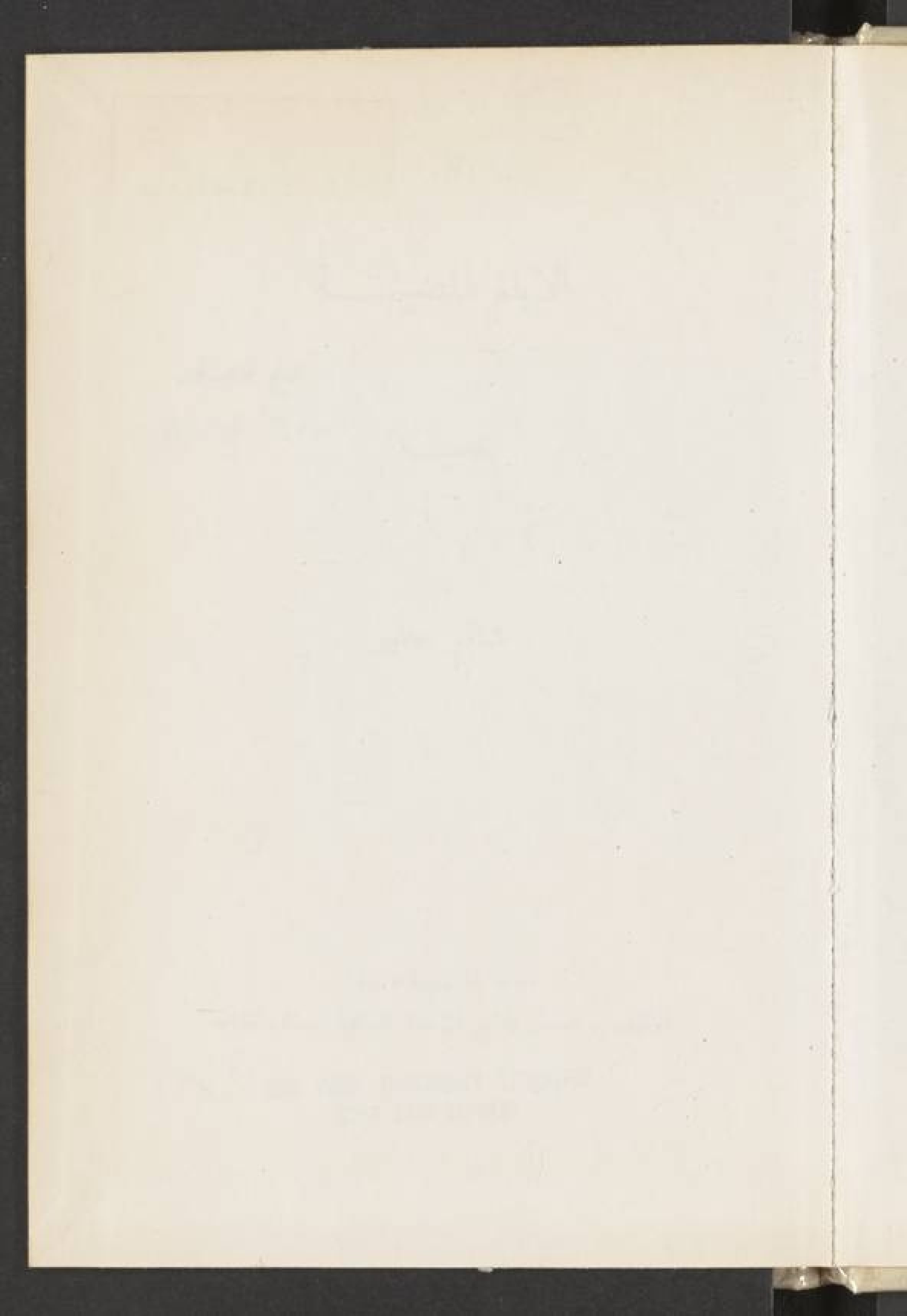
بقلم

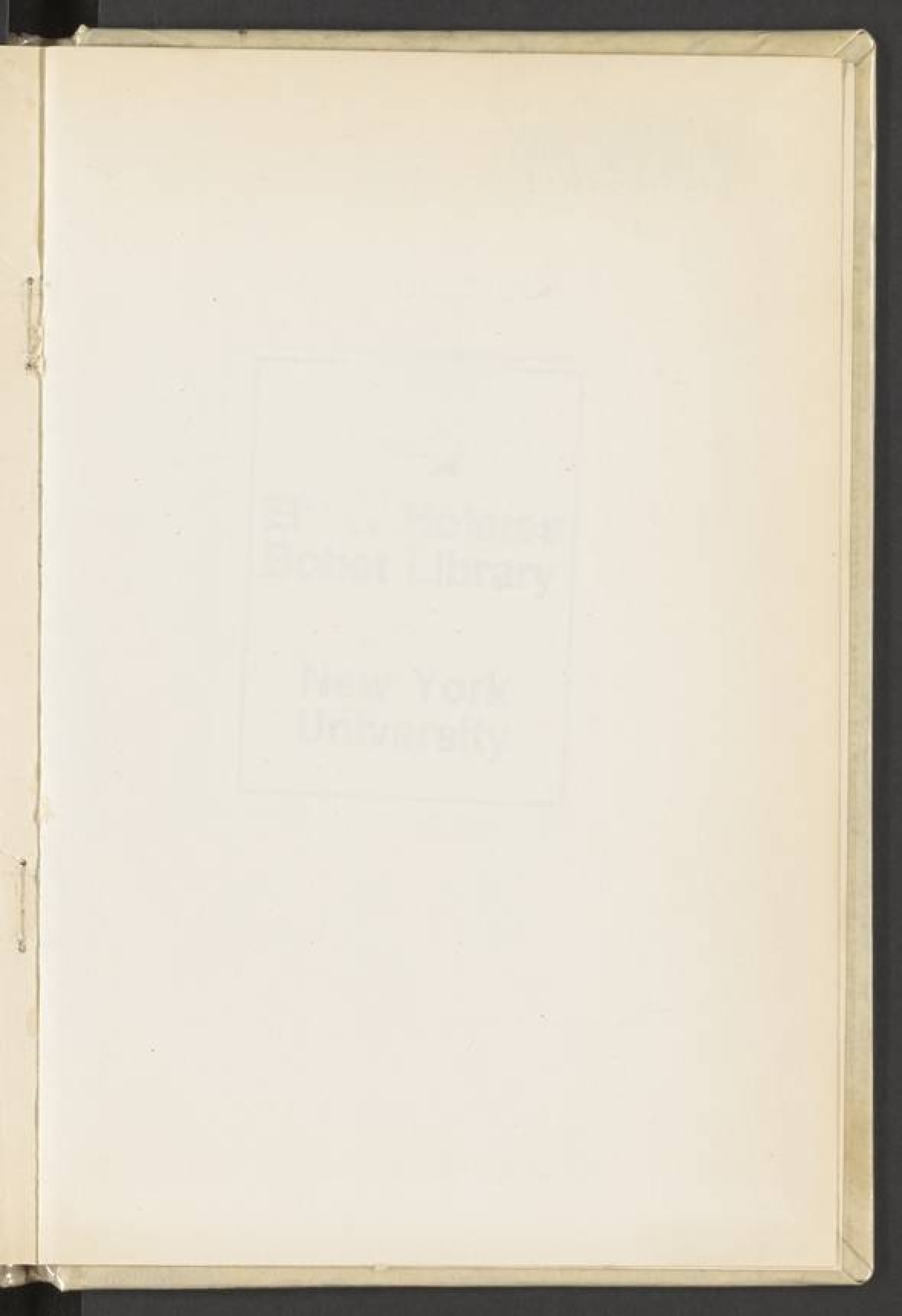
شاكر جابر



١٩٦١


BOBST LIBRARY
3 1142 01517 3100





Jābir, Shākir

al-Ayyām al-muḍī'ah...

الايام المضيئـــة

قصـــة

بقلم

شاكر جابر

مطبعة الجمهورية ـ بغداد
الغلاف ـ تصميم وطبع المؤسسة العراقية للدعاية والطباعة

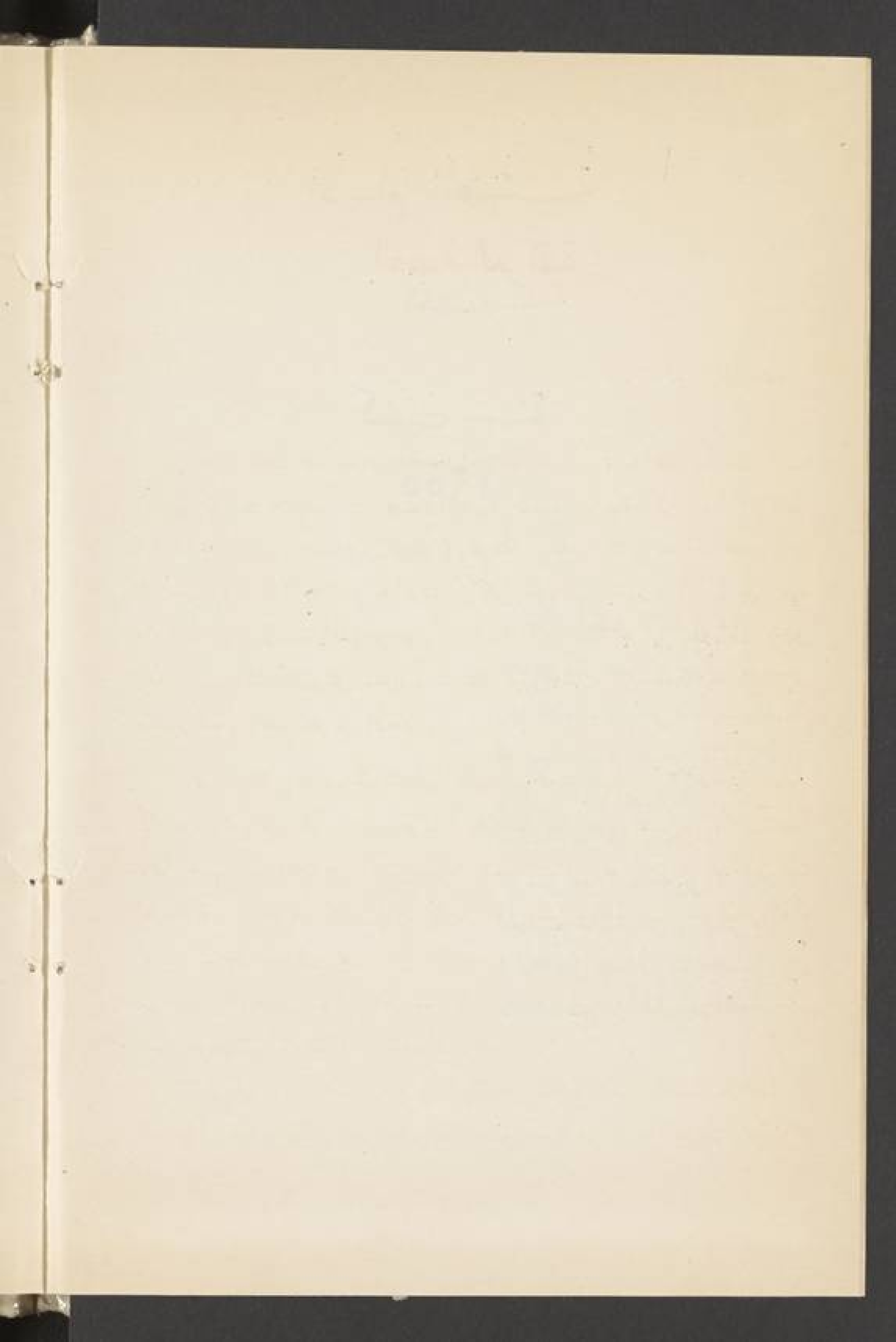
الأيـام المضيئـــة

قصـــة

كتبت سنة

١٩٥٥

« أن أجمـل الايـام في حياتنـا هي
تلك التي تبقى تضيء في جوانب نفوسنا
رغم ظلام الهموم الذي طالما يخيم عليها
فلا نعود نرى غير اشباح الخوف والقلق
واليأس . ايامنا المضيئة تلك هي خـير
ما لدينا ولعل من الواجب على الانسان
ان يعمل قدر استطاعته على ان لا يدع
المصابيح خابية فكل يوم يمضي يترك
شعاعاً يظل يخترق الزمن ويتسلط على
طاقاتنا فتتفتح عن رغبة وحب للحياة »



فى
القصة العراقية

بقلم الدكتور داود سلوم

نشأت القصة العراقية الحديثة بمفهومها الحديث متأخرة جداً فقد بدأ احمد السيد - وليس بكثير من النجاح - ينشر قصصه القصيرة وقصصه المتوسطة الطول بعد ١٩٢٠فنشر (جلال خالد) و (فى ساع من الزمن) وغيرهما . وتعدد الكتاب بعد ذلك فجاوزوا في الاربعين سنة الاخيرة حوالي واحداً وعشرين كاتباً منهم انور شاؤول وابراهيم حقي محمد وذو النون أيوب وجعفر الخليلي ويعقوب بلبول والدكتور صفاء خلوصي وعبد الحق فاضل وخليل رشيد وشالوم درويش المحامي وعبد الملك نوري وشاكر خصباك وعبدالله نيازي وادمون صبري وعدد آخر من القصصين .

وكما تكاثر عددهم فقد اختلف انتاجهم في العمق والجودة والاتجاه وكان بعض الانتاج ما التزم فيه كتابه اسلوباً عربياً أصيلاً ومنهم من جدد وأقتبس في حواره اسلوباً عامياً . ومنهم من أتخذ من الأدب مدرسة للتعليم السياسي ومنبراً للتوجيه العقائدي اما اخرون فقد اكتفوا بان يكون الاديب كالفنان الذي يصور ما يقع بصره عليه فبعض أدباء العراق كما قال ستندال مؤلف رواية (الاسود والاحمر) المرآة التي يحملها انسان على ظهره تصورما ينعكس عليهامن مناظر سواء كانت حسنة او قبيحة وكان في العراق للمدرستين انصار يعرفهم من قراء القصة العراقية وتتبع كتابها .

ولم يكن نصيب (الرواية) في العراق من النجاح كنصيب القصة القصيرة . فالرواية العراقية لم تكتب بعد . وان النماذج التي بأيدينا هي كل ما طبع منها وهي ثلاثة

او اربعة منها (الدكتور ابراهيم والارض واليد والماء) للاستاذ ذو النون أيوب (في قرى الجن والضايع) لجعفر الخليلي وان هذه الروايات الاربع يعوزها العمق والسعة أقصد بهذا تعدد الابطال والوجوه والتعبير عن وجهات نظر البطل المختلفة وتعريفنا عليه في الخارج والداخل في مظاهره الخارجية وفي شخصيته الداخلية . ما يبدو عليه امام الناس وما عليه مع نفسه ! ماذا يقول وماذا يفكر . كل هذه العوامل مرتبطة ومتكاتفة ومتعاونة تخلق رواية تقرأ ويمكن لك ان تناقش ابطالها اما ان يكون الابطال اشبه بابطال القصص الشعبي لا يثيرون فيك اهتماماً كثيراً أكثر من اهتمام عابر فهؤلاء ولا شك ابطال ميتون ينساهم القاريء سريعاً .

واعطاني صديقي شاكر جابر اثره الأول (الأيام المضيئة) كي أقراه وقرأت الاثر وأعجبت به وطلبت منه ان يقدمه للطبع . وكان شاكر كثير التردد لأنه متواضع خجول يرى ان في مجهوده شيئاً لم يكتمل بعد وانا أجد فيه شيئاً ناضجاً والححت عليه واجابني اخيراً لهذا الطلب فالحمد لله على ذلك .

فالقاريء العراقي سيتمكن ان يمسك هذا الاثر بيده ويقول بعد ان يقرأها ان هذا الاثر عراقي حقاً . انها لاشك رواية ناجحة .

سوف تجد في هذه الرواية ابطالاً مختلفين سوف لن يخبرك المؤلف عنهم شيئاً انما سوف يتركهم لك يتكلمون فيما بينهم فسوف تحب وتكره آخرين سيكون حبك وكرهك ناتجاً عما يقولونه أو يعملونه وناتجاً عما يدور في اذهانهم ونفوسهم وعن صدقهم ونفاقهم ليس هذا فقط ففي الرواية وصف للحياة كما هي . يصف لك المؤلف حياة الطلاب في كلية معينة ويصف لك حياة عائلة في البيت وعلاقة أب قاس بأبن ذكي مرهف الحس ويصف لك كذلك مشهداً ما اظنه أثار اهتماماً عند أي كاتب من كتاب القصة

العراقية . يصف لك المؤلف غرق منطقة من مناطق بغداد منذ سنوات وصفاً حياً دقيقاً يثير الاعجاب .

اما نهاية القصة فهي من الطرافة بمكان فهو لم يختم القصة بالخواتم التقليدية بأن يتزوج البطل البطلة ثم يعيشا بسعادة او كما يقول الانكليز And they lived happily ever after بل يتركك معلقاً فهو يقودنا الى لقاء بطلي الرواية الاصليين لقاء يدور فيه حديث قصير ثم يختفيان كما يختفي قطارهما وتنتهي القصة . ماذا حدث لهما ؟ هل التقيا ؟ هل تزوجا ؟ فالكاتب تركك تحدس الى الابد مثلي . واني لافكر كلما تذكرت ذلك الحديث اللذيذ الذي دار بينهما افكر بالذي حدث ! وهذا سر من اسرار الفن القصصي .

اما اسلوب الكاتب وطريقته في كتابة الرواية فقد اتبع طريقتين قديمة وحديثة . الطريقة الاولى هي طريقة القرن التاسع عشر التي اتجهت الى الوصف الخارجي للبطل . كوصف مظهره وشكله ووصف محله او غرفته والطريقة الثانية هي طريقة القرن العشرين . طريقة فرجينيا وولف وجيمس جويس اعني بذلك طريقة الاستبطان الذاتي الذي يقوم به بطل الرواية نفسه . فالبطل يتحدث عن نفسه يتحدث عن خواطره يقول ما يفكر به . ويبدو ان المؤلف قد استعان على اتخاذ هذه الطريقة بالكتاب المصريين المحدثين .

اما الحوار الذي وقع في الرواية فهو حوار البيئة دون تغيير فاذا تكلم الأب في البيت فهناك عامية صريحة .

واذا تكلم البطل الى رفقائه في المجتمع فهو حديث منتقى بين العامية والفصحى . فالكاتب امين في هذه الناحية أشد الامانة وهذه الطريقة جديدة مستحدثة أيضاً اسماها الغربيون Speaking of Character in Character .

اما النزعة السياسية التي تسود القصة فأني لا أريد ان اناقش الكاتب فيها فالكاتب قد وصف فترة معينة كانت لها ظروفها وملابساتها. أرجو مخلصاً للكاتب التوفيق وللرواية النجاح .

داود سلوم

-١-

حين انهيت دراستي الثانوية بتفوق لم أكن أعرف للحياة معنى سوى النجاح الذي فزت به وكل اللذائذ التي اختزنتها نفسي في عهد الطفولة والمراهقة لم تساو لذة ذلك اليوم الذي كنت لفرط سعادتي فيه احس كأنني أطوف باجنحة ملاك في جنة زاهية بالاحلام . كنت أتطلع الى الحياة بشوق وأتشوف الى المستقبل بمنظار الأمل فاذا هو مضيء كالفجر، زاه كالربيع ،هادىء كالامواج في ليالي الصيف المقمرة . اما همومي فكانت تتضاءل امام قوة اوهامي وظنوني الحلوة . ويوم تسلمت الشهادة كانت كل تلك الهموم الصغيرة تبدو لي وكأنها محصورة في منشور زجاجي وما ان رحت أسلط عليها أشعة أحلامي السحرية حتى بدا لي كل ما أتمناه قريباً ولطيفاً . كانت رغباتي تتوالد بسرعة انشطارية ، رغباتي المخبولة التي كانت تدفعني لان أريد كل شيء وبسرعة ومن غير اكتراث او احتمال للفشل. أجل الفشل ! هذا الذي تتحطم على صخوره زوارق الاحلام فتتقاذفها امواج الدموع واعاصير الحسرات . ان أحداً لا يستطيع أن يكتب عن الفشل كاولئك الذين في وجودهم جرح لا ضماد له . وأنا لا اكتب لاني انسان فاشل ... ابداً... رغم اني فقدت الزورق وما فيه والفيت نفسي على صخور الشاطيء الموحش . لكن أتكون للحياة قيمة من غير ألم ؟ تلك الحرارة التي ما تنفك تدفع الانسان الى الامام هرباً منها ... الالم .... انالاخطاء التي يرتكبها الانسان في مسيرته الكبرى قد يكون ثمنها حياته نفسها وقد يكون لا . قد يكون الثمن ذلك السعير الدائم الذي يختفي وراء رماد الخيبة والندم .

كنت أعلم أن أبي سيعترض رغبتي في اكمالي الدراسة ببغداد وكنت وإياه في صراع

مستمر . لقد تزوج امرأتين وعشنا انا وأخي من زوجتـه الأخرى في حيرة وخوف وقلق ازاء تفكيره الذي سممته شيخوخة اخذت تعفن عقله ومشاكل كثيراً ما يكون هو سببها في البيت . كان دخله ـ وهو معمار ـ يوفر لنا عيشاً متوسطاً ولـكنه يخاف من المستقبل ولا يتصور فيه سوى الجوع والموت وحين فاتحته بمسألة اكمال الدراسة شرع يسب ويلعن ويخلع على نفسـه (أجمل الصفات) لانه تزوج اثنتين ولأن الله لم يقصف عمري أو عمر أخي لانا نجلب له المتاعب . كان يبدو وكأنه يرغب أن يموت كل من في البيت ، ورغم ذلك فقد ظللت أياماً أرجوه وأتوسل اليه وكذلك امي وام أخي ايضاً ولكن شيطان العناد كان رابضاً على تفكيره . لكنني أنا أيضاً لزمت العنـاد . اية قوة كانت في ؟ انني لأعجب أحياناً كيف إستطعت إقناعه ولعل أساليبي التي حيرت حتى الشيطان جعلته يهـدأ قليلاً في مساء يوم ويسألني بجفاف :ـ

ـ زين وبأي كلية ؟

كنت أعلم أنه سيسخر من جوابي ولكنني استجمعت شجاعتي وأجبته :

ـ كلية الصيدلة

واذا به يضحك ويصفق براحتيه ثم يكلم نفسه متعجباً « صيدلي ؟ ... هه ابني صيدلي ... واي واي !!.

ثم عاد وجهه فاكفهر وغمرته تقطيبة بغيضـة والتفت نحوي حانقاً وصرخ بي :

ـ أبوك ؟ عمك ؟ جدك ؟ فهمني بس ... أي واحد منهم صار صيدلي ؟ ثم نادى أمي بتهكم .

ـ تعالي يا خاتون ... تعالي شوفي المدلل ... واي واي ... يريد يصير صيدلي تف .. كلب ابن الكلب .

ولكن أمي لم تجبه اذ لم تكن في البيت ساعتئذ ولكن زوجته الأخرى أجابته بقوة .

ـ يعني شتريده يشتغـل ؟ بالعمالة يشيل الطين على رأسه ؟ والله خوش .. وعند

ذاك لم يحتمل فقد نفد صبره وصرخ بها :

ـ اسكتي انعل ابوكم وابو اللي خلفكم ٠٠٠ بلاء٠٠ كلكم بلاء ٠٠٠الله سلطكم على راسي وما يخلصني منكم غير الموت ٠

وكان كلما استبد به الغضب يتكلم وكأنه شخص آخر يكفر بالله والانبياء ويسب الناس ونفسه ويتمنى لو يموت او يموت من يلتقي به في تلك الساعة . وأحياناً كانت يداه ورجلاه تعينانه حين يعجز عن التعبير فيكسر أواني الطعام او يمزق الملابس او يضرب أمي او زوجته الاخرى او يلطم رأسه بعنف وفي اليوم التالي يلزم الفراش ويشكو الصداع. وبعد أن كبرت قليلاً ورأى أنني أصلح للصفع والركل جرب ذلك معي مرة ومرتين : وفي ذلك اليوم أيضاً ولكنه كان قاسياً ولا أقول متوحشاً حين ترك الدماء تسيل من انفي بعد ان ضرب زوجته على وجهها فتورم بعد قليل ٠ كانت أمي في الخارج وحين عادت ورات كل ذلك لم تتكلم . كانت هادئة كعادتها دائماً ولكنه كان يضيق بهدوئها . كان يرعد ويزبد حين جاءت وأخذت تمسح الدم من وجهي صامتة . فلم يجد بدأ من أن يترك البيت وفي الصباح سمعته يقول لها :

ـ خلي يروح لبغداد خلي يروح الى جهنم وبئس المصير غسلت ايدي منه ، خلي يروح وين ما يروح .

كنت أعلم ان عمي يسكن في بغداد ويشتغل هناك ببيع الحنطة والشعير في دكان صغير وكدت أطير فرحاً حين سمعت أبي يقول ذلك . فقد كانت موافقته تلك نعمة سماوية ٠ هذا مع أني لم أفكر لا باجور الكلية ولا بثمن الكتب ولا أي شيء آخر ، كنت اريد ان أدرس وأنجح وابتعد عن أبي أيضاً ، أبي الذي لم يغير دعاءه في الصلاة مذ سمعته يصلي «ربي إني مسني الضر وانت أرحم الراحمين ». ابي الذي لم يقل لي كلمة وداع فيما كنت اغادر البيت قاصداً بغداد بل كان شاربه الايض المبروم يرتجف .

وركبت القطار الصاعد من الديوانية الى بغداد بعد ان ودعتهم جميعاً وشيعتني أمي

بأدعية وابتهالات كثيرة ، اما زوجة أبي فقد تهدج صوتها وسمعتها تخاطب أخي «روح وصل أخوك للمحطة » لقد كانت نيلة دائماً معي ، وغمرتني نشوة النصر بعد ان تحرك القطار ودوت صفارته في الفضاء المظلم واخذت الصور الكثيرة تتوارد على خاطري متلاحقة متابعة فيما القطار يسير .

اذن سوف ادخل كلية الصيدلة واسكن في بيت عمي وأعيش في بغداد التي طالما كان يحدثني زكي صديقي عنها وكأنها اسطورة. لقد نجحت في الذهاب كما توقع هو، لقد قال لي مرة :

ـ الحياة مقدسة يا محمود ويجب ان لا يعيش الانسان كالحشرة او الحيوان المفترس
وحين شكوت له ممانعة ابي اجابني :

ـ ابوك ؟ ابوك مسكين كأبي وكأكثر الآباء . اسمع اذا وافق على ذهابك فأنا مستعد لمساعدتك رغم انني كما تعلم .

ـ ولكن عمي هناك وهو يحبني تصور انه كلما زارنا ينفحني بدينارين او ثلاثة .

ـ عال ـ عال جداً اذن ستستطيع الاستمرار في الكلية وستنجح ايضاً . انت ذكي ذكي جداً ويجب ان تفيد المجتمع الا ترى ؟

كان يلهب عزيمتي دائماً ويحثني على النجاح وكانت سذاجتي احياناً تغزل لي اوهاماً عريضة فأتساءل لوحدي « لماذا يلح علي هكذا ‥ عجيب » .

لقد حضر زكي لتوديعي في المحطة وودعني قائلاً :

ـ لا تنس الاتفاق …

ـ أنسى ؟ هيهات يا زكي

واي اتفاق كان ؟ . كان يقول لي دائماً : لقد منعوني من الاستمرار في الدراسة ويجب ان تستمر انت والطريق التي حيل بيني وبينها تستطيع انت السير فيها الى النهاية ، كان ابي يضيق به وبصداقتي معه ، لقد سألني مرة :

ـ ليش ما تصلي يا ملعون الوالدين ٠

ولم اجبه لانني تركت الصلاة منذ زمن بعيد ولا ادري لماذا ، لقد كنت في مراهقتي متديناً الى حد عجيب كنت أصلي وأقرأ القرآن حتى منتصف الليل ولكن ذلك لم يعجب ابي فصرخ بي مرة وكنت أقرأ القرآن :

ـ يعني تريد تصير نبي ؟ ليش ما تدرس ؟ صلاة وقرآن صلاة وقرآن كل يوم وكل ليلة ؛ عايف الدروس عايف كل شيء ملعون الاهل تريد تصير نبي ؟ فهمني !

ولا اذكر لماذا تركت الصلاة بالضبط ولكنه يوم سألني ليش متصلي ؛ عاد فتابع :

ـ ادري ٠٠٠ أدري ٠٠٠ ما دام صديقك زكي .

وأجبته بهدوء :

ـ لكن زكي ما طلب مني ترك الصلاة

وبصق علي وهو يدمدم ٠

ـ غـلت ايدي منك .... أنت متفيد .... تلف .... تلف .... زكي بن حسون صديقك وأترجى منك خير ؟ لا والله ....

وتوقف القطار في محطة الحلة وكانت أشعة الصباح ونسماته العذبة تثير في الشوق الى بغداد لحظة إثر أخرى وصعد شابان في مثل سني واتخذا مقعداً قريبـاً مني كنت اعرف احدهما معرفة بعيدة اذ كان معي في المتوسطة ، وانتقل مع أهله خلال السنة الدراسية ولم أره بعد ذلك الا تلك الساعة وتعارفنا وفهمت منه أنه ينوي دخول الكلية العسكرية وكان يتكلم بحماس وتذكرت ابن خالتي الضابط الذي زارنا يوماً وحاول اغراء أبي على ادخالي في الجيش قائـلاً :

ـ عمي أبو محمود....اذا نجح محمود خلي يدخل الكلية العسكرية ، اولاً المصروفات على الجيش ثانياً مستقبله ممتاز ٠ لكن أمي عاجلته :

ـ لا عيني .... لا .... كل يوم بمكان ، لا عيني .... أريد عيوني تشوفه

وأجابها معتذراً :

والله يا خاله آني أشوفه يصلح : ثم ضحك وتابع ؛ وهو حلو وجسمه ممتاز .... بطل ما شاء الله بطل.... شوفي

لكن أمي سدت أمامه السبيل قائلة :

ـ اسم الله عليه .... عسكر ؟ لا .... وروح أبويه لا

وحينذاك أجابها أبي وهو يصر بأسنانه :ـ

ـ تريده يصير أفندى .... ابن البنا صيدلي .... تف ....

* * *

ومن محطة بغداد إتخذت طريقي الى بيت عمي في الكرادة جنوبي بغداد ذلك البيت المطل على دجلة والذي قليلاً ما رأيته إذ جئت مرة بصحبة أبي وأخرى مع أمي في مواسم زيارة الكاظمين وها أنا وحدي اليوم ذاهب إليه .... كانت الوان باهتة عن بغداد لا تزال عالقة بذهني ولكني اليوم رأيتها وكأني لم أرها بل حتى ولم اسمع عنها . كانت السيارة تسير بي مخترقة الشوارع المزدحمة بالسيارات وكنت متعباً وعيناي مبهوتتين من هذا (الجديد) الذي بدا لي كشريط سينمي سريع واحسست بالدوار والاعياء .

وغادرت السيارة فاذا القهوة التي كنت انبش عنها في ذهني وانا في السيارة تطالعني وكذلك الدكان الصغير في مدخل الطريق المؤدي الى (الشط) وصاحبه الرجل القصير الذي كنت قد اشتريت الحلوى منه مرة أو مرتين وهذه هي نفس البيوت القديمة المائلة للانهدام على الجانبين ، وقطعت الطريق وأنا اتذكر واستعيد فرحاً مسروراً ، واهتديت الى البيت بسهولة فقد قادني احد الأطفال ولن انسى تلك الفرحة التي شهقت بها امرأة

عمي بعد ان تعرفت علي . الفرحة التي ظلت تطالعني من وجهها الى النهاية . أما عمي فكان نبيلاً ايضاً لقد أحسست اني جئت سعادة لهما فهما محرومان من الاطفال . وظننت في الايام الاولى انه يتكلف ويتصنع الحركات والتصرفات لاجلي لكني تبينت ان ذلك ليس صحيحاً . كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه وصوته الهادىء ينساب الى سمعي حنوناً فتزداد طمأنينتي . كان هادئاً وفي صلاته يردد دائماً « ربي لا تذرني فرداً وانت خير الوارثين » لقد أحببت حتى طريقته في اداء الصلاة رغم أني لا أصلي ؛ ولعل الذي زادني حباً له واحتراماً هو عدم تساؤله عن تركي للصلاة رغم ايمانه وتدينه فلم اشعر انه يحقد علي لهذا السبب او يحتقرني . أما زوجته فكنت الاحظ مسحة الحزن ترتسم على جبينها كلما رأت طفلاً لكنها كانت تحرص ألا ألمح شيئاً من حزنها ؛ كانت مستسلمة للواقع المر وهي تعاني ألماً دفيناً يبدو أنه أثر في صحتها ورغم ذلك فكانت تبدو مبتهجة كلما علمت بحاجتي لشيء ما ، وكان الالم يعصرني وانا أراها تتعب نفسها كثيراً في طهي الطعام وإحضار صنفين او ثلاثة في الغداء والعشاء . كنت اقول لها ان إقامتي ستطول فلست ضيفاً ، ولكنها ظلت دائماً كذلك . كان البيت هادئاً وجميلاً ورغم انه قديم الا ان عمي على ما يبدو كان دائباً على الاعتناء به لذا كان منظره لطيفاً وبعض القصور تمتد بجانبه وامامها السدة المحاذية للنهر . لقد خصصوا لي غرفة الاستقبال وفي عصر كل يوم كنت اقتعد كرسياً امام الباب امتع نفسي بمشاهدة الطبيعة الفاتنة والماء المنساب رقراقاً عذباً والاطفال والشباب الذين يسبحون عصر كل يوم وزوارق الصيد التي يبدو منظر أشرعتها أخاذاً قبيل الغروب حين يحتضن الأفق قرص الشمس وعلى جانب النهر الآخر حيث ازدحمت اشجار النخيل وكأنها تحيي فتنة الطبيعة وسحرها .

وبعد يومين او ثلاثة من إقامتي أخذني عمي معه لأرى بغداد فأستأجر سيارة «تاكسي» وكان يشير للسائق من هنا عمي .. من هناك ابني ... ويعود ليقول لي : شوف..

هذا المكان يسمونه الباب الشرقي وهذا باب الشيخ٠٠ باب المعظم ٠٠٠ جانب الرصافة٠٠ وهذا الجسر لا اعرف اسمه وقفز الى ذهني حافز عجيب كيف لا يكون للجسر إسم ٠٠٠ ولكنه كمن تذكر قال يسمونه الجسر العتيق بينما رأيته انا جديداً واستحييت ان أسأله شيئاً عن التسمية وتابع هو يسمي لي الامكنة ويشير اليها ٠٠٠ جانب الكرخ تمثال الملك فيصل الذي كنت اراه على علب السكاير التي يدخنها أبي ٠٠٠ وتمثال مود والجسر ايضاً جسر مود كما أسماه لي ٠

ومضت أيام وقبل تقديمي الطلب الى كلية الصيدلة شاهدت السراي ؛ بنايات الوزارات وساعة السراي والتمثال البرنزي الصغير فوقها والذي لا يعرف الكثيرون لمن هو وسألت عمي عنه فاجابني متعجباً :

ـ تمثال على الساعة في السراي ؟٠٠٠ ها ها٠٠٠ لجمن

ـ ومن هو يا عمي ؟

ـ لجمن ـ انت ما سامع عنه ؛ حقك لجمن قائد انكليزي ٠٠٠ ولا ادري ان كان مصيباً أم لا فقد سمعت مرة انه ليس « لجمن » ولا انسى ذلك الحنان الذي كان يسبغه علي عمي . هذا الرجل الذي كنت اسأل نفسي كيف يكون أخاً لابي ؟ وقدمت الاوراق الى الكلية ولكن عمي كان يلح علي ان يكلم احد الوزراء الذين له بهم معرفة بشان قبولي وكلما اعترضت عليه قائلاً:

ـ لكن يا عمي درجاتي ممتازة ومعدلي ٨٧ وساقبل حتماً .

يجيبني:

ـ لا يا بني لا ، هنا في بغداد كل شيء بالواسطات٠٠٠ انت ما تدري ، انت حقك.

كنت اسير في شارع الرشيد عند عودتي من الكلية وفي كل يوم ارى شيئاً جديداً في هذه المدينة الكبيرة والصخب والضجيج كانا يهزان نفسي فاعود للبيت وأنا بحاجة لاعصاب

غير اعصابي ورأس غير راسي . وليست السيارات الكثيرة بالوانها المتعددة واشكالها المختلفة فقط انما الاشياء الاخرى التي كانت نظراتي البلهاء لا تنفك تتفحصها . حانات الخمور واللوحات المعلقة فوق ابوابها والمخازن التي تغص بالبضائع مما لم اشاهده في الديوانية ودور السينما لاسيما في الباب الشرقي حيث كان العجب يذهلني وأنا ارى حشود الناس تتدافع متداخلة ببعضها بشكل فضيع وهم يروحون ويجيئون وكأنهم على غير هدى كما كان يبدو لي ، ثم النساء ... النساء اللواتي كن يثرن في احاسيس أخذت تضيق علي وتحاول فك الوثاق الذي شدت به عواطفي ، كنت أرى الصدور العارية والنهود النافرة التي تجذبني بعنف وجنون وتلك الغلالات الشفافة التي تبدو قاسية عليها . كان العرق يتصبب من جبيني وأنا أحس وجودي في بغداد لا يعني أن انجح في الكلية فحسب بل ان هذه المتناقضات الكثيرة التي تهت في خضمها هي ايضاً يجب علي الاهتداء إلى فهمها وإلى وسيلة ما للخلاص من هذه الهزات المتوالية التي تتركني ارتعش كلما تولاني القلق والاضطراب والضيق من هذه الحياة المعقدة . ولم يكن احد يعلم بهذا الصراع الخفي الذي يضطرب به كياني وكانت حاجتي الى صديق أبوح له واستعين به تتزايد يوماً فيوماً . صديق مثل زكي لكي اكشف له النقاب عما يعتمل في راسي من افكار غريبة وعجيبة ايضاً .

ومر اسبوع او اثنان قبل ان اكتب لزكي رسالتي الرابعة ولكنها كانت الاولى بالنسبة لحياتي الجديدة وسطرت له كلما اردت ووصفت له كل ما رأيت ولكنه كان ذكياً الى حد عجيب فقد تغلغل الى روحي من خلال رسالتي وأجابني :

أإلى هذا الحد تصدعت ؟ على ماذا اتفقنا ؟ ستعتاد كل شيء بعد أيام والمهم الا تفكر بالهرب ، فكر في أنك يجب ان تنجح وتتفوق ايضاً وتذكر دائماً ان الفشل ليس حليف الخوف فحسب بل انه نواة الشقاء ، الشقاء الذي على كل منا أن يعمل جهد استطاعته لدفعه والقضاء عليه . انا معك في انك بحاجة لصديق ولكن لماذا تتعجل هكذا ؟ صبراً ..

انت في أيامك الأولى وستتعرف الى الكثيرين وربما تنساني لا أدري . اكتب لي واقبل تحياتي والسلام .

زكي

ولكنني مع ذلك لم أجد صديقاً في تلك الأيام ، وكان الطلاب في الفترات بين المحاضرات يتحادثون ويتضاحكون وربما كان هناك من هو مثلي ينزوي دائماً في مكان ما انما لم اكن اعرف أحد ولا يعرفني أحد . ومما زاد في الضيق الذي كان يغلف عقلي هو نوعية الدروس رغم أني أجيد الانكليزية ولكنني استعدت شجاعتي بعد أن قرأت كلمات زكي ووجدتني بعد أيام التهم الدروس واستعيدها في البيت .

لكن الذي كان يعذبني هو وجود الطالبات في الكلية ، كان يحفر في دماغي جداول تنساب فيها افكار لم تكن لتخطر لي ببال قبل تلك الايام . وكنت كلما سألني عمي عن سير الدروس وعن مدى سعادتي أجيبه مطمئناً إياه لكن ماذا اقول له عن هذا الخجل الذي لف خراطيمه الاخطبوطية حول كياني ؟ فأية سعادة يحسها انسان مثلي يختفي لسانه في مكان ما من فمه في وقت ليس له إلا ان يقول شيئاً ما فيكسب صديقاً . وقيل في المأثور « قيمة المرء ما يحسنه » فاعترف أنني لم أكن أحس بقيمة لوجودي حتى ذلك الحين ! نعم انا الذي كنت أستحيي . . . نعم أستحيي حتى من التحدث الى زميل يجلس بجانبي مع ان مرحه كان يكسر كل قيود الخجل والحياء ولكن هكذا كنت .

٢

ان أجمل الايام فى حياتنا هي تلك التي تبقى تضيء في جوانب نفوسنا رغم ظلام الهموم الذي طالما يخيم عليها فلا نعود نرى غير اشباح الخوف والقلق واليأس . ايامنا المضيئة تلك هي خير ما لدينا ولعل من الواجب على الانسان ان يعمل قدر استطاعته على ان لا يدع المصابيح خابية فكل يوم يمضي يترك شعاعاً يظل يخترق الزمن ويتسلط على طاقاتنا فتتفتح عن رغبة وحب للحياة .

وأية ايام وذكريات تلك التي تشع في أجواء روح كل طالب ؟ أيام الدراسة . ايام الصداقة النظيفة والوداد والمنافسة البريئة ، أيام الحياة الزاهرة التي يعطرها أريج الشباب. وحتى الذين يظنون ان الشقاء يجري في شرايينهم فان لديهم من تلك الأيام ما يغذي حب الحياة في أرواحهم . ولكل طالب أيامه وذكرياته التي يطل منها على وجوده وعلى ماضيه وعلى مستقبله وعلى واقعه فيتبين المبرر الذي يعيش له .

لكن مع ذلك تبقى في حياة كل منا علامات إستفهام كثيرة تنتظر ـ وما أمر الانتظار ـ وكل يوم يمر من عمر التجارب يضع وراءه علامة تعجب .

وأنا لا أدري اي شيطان وسوس لي وأغراني أن أنشر أشرعتي وأسلم زمامي لرغبة كنت اجهل عواقب اندفاعها .. انا ألذي كنت لا أعرف لعواطفي لوناً ولا أحس لها حرارة ولا أدفع عنها ثمناً . كيف ترنحت بينما العاصفة لم تدهمني بعد ...

مرت الايام الاولى من حياتي في الكلية ولم يزل وجودي غافلاً وعواطفي راقدة ونظراتي مبهمة... كنت كأني انتظر نوراً يشع علي وأنا أكاد اختنق في ظلام من الحيرة .

وكانت حفلة التعارف ... لقد كان ذلك اليوم من تلك الأيام المضيئة . اليوم الذي جلست الى المائدة مع بعض الزملاء وانا اتفحص الشريط الأخضر المعلق على صدري لقد كانت توزعه الطالبة مديحة ، مديحة التي ما كنت أراها دائماً ولا فكرت بها أبداً والتي لا أزال حتى اليوم أراها وأفكر بها دائماً أبداً ولكن . . . أواه أي يوم ذاك . .

كنا ثلاثة حول المائدة وكان صاحباي أجرأ مني فقد أشركاني في الحديث معهما بنفس المرح الذي انطلقا في جوه وبعد أن انتهينا مما قدم إلينا أخذت أحوم بعيني حول الموائد أبحث عن مديحة الطالبة المرحة التي توزع الأشرطة الملونة علينا نحن الطلاب الجدد ومع أنها كانت هي أيضاً معنا في الصف الاول الا أنني لحظتها تحدث طالباً في الصف الثالث كان الطلاب ينادونه من هنا وهناك بهجت ... بهجت .. ورأيتها تكلمه وتضحك وإياه بمرح ومن غير تكلف ولا ميوعة . لم تكن وحدها في تلك الحفلة فكل طالبات الكلية كن حاضرات أما لماذا انسابت نظراتي البلهاء تبحث عنها . . . لا أدري ، واقتربت مني بعد لحظات قائلة :

ـ يعني تريد أكثر ؟

ونبهني واحد من صاحبي :

ـ إنزع الشريط . . . ما دمت انتهيت من الاكل .

كنت أفرح وأحزن وأحب وأكره وأنام وأصحو قبل ذلك اليوم لكنني كنت ساذجاً . . . كالطفل . . . تماماً . وتصبب العرق من جبيني وانتزعت الشريط والتفت فاذا بها مضت وصدى ضحكتها يدق أبواب قلبي دقات متوالية . وبعد الأسابيع الاولى كنت قد اعتدت اساليب الاساتذة في القاء المحاضرات وكنت أقرأ يوماً بيوم ووضعت لنفسي

منهاجاً للمذاكرة لكي ييسر لي إستيعاب المحاضرات بسهولة وكان لاجادتي الانــكليزية فضل كبير في ذلك .

وكان من بين اساتذتنا الذين ليس لهم ذكرى حميدة في نفسي ونفس كل من كان معي استاذ الفيزياء الذي كان يلقي محاضرته بسرعة عجيبة كأنه يتلقى أجوراً عن كل كلمة يتلفظها. ولم يكن أحد منا مسبوقاً بسرعته تلك الا أنني بعد ثاني محاضرة استعددت له حتى لا أدع محاضرة يفوتني تسجيلها ، ومع اننا لم نكن مجبرين على كتابة الملاحظات الا انهــا ضرورية لنا وهذا هو السبب الذي كان يحدو بالطلبة الى الاعتراضات المستمرة على الاستاذ كي يخفف من سرعته قليلاً ولكنه لا يجيب بسوى النقر المستمر على المنصة ، وقد حدث مرة ان تطورت المسألة وأخذ ينتابني شعور بالخوف من أمور كنت اسمع عنها فقط .

لقد دخلنا ذات يوم الى القاعة وقرأنا على اللوحة هذه الكلمات التي لم يدر أحد من كتبها « يوافيكم الاستاذ . . . بالحقائق في محاضرته فتنطبع في مخيلتكم كانطباع الوان الطيف الشمسي في العين عند دوران قرص نيوتن » وراح الطلاب يضحكون ويضيفون اليها ويحذفون منها كيفما شاءوا وحين أقبل الاستاذ ووقف امام اللوحة ضج الطلاب ضاحكين فالتفت وراءه كالملسوع وامتقع وجهه ثم مسح الكلمات وخاطبنا مغضباً :

ـ أنا لا أسمح بهذا والشجاع الذي كتبها يقف أمامي .

ولم يجبه أحد فصوب إلينا نظرات تهدد بالانتقام .

ـ حسناً لنبدأ الدرس .

لكنه ما كاد يمضي في محاضرته قليلاً بصوت متهدج حتى بدا وكأنه نسي كل شيء وانطلق سريعاً كعادته ولكن أحد الطلاب لم يمهله فناداه وكان جالساً في الخلف :

استاذ : رجاء على كيفك .

لكن الأستاذ كان لا يزال حانقاً فأجابه :

- ومن أجبرك على كتابة شيء ؟

- ولكن تسجيل الملاحظات ضروري ونحن في بداية السنة .

واخذ الطلاب يتهامسون وتطور الهمس الى (وشوشة) صاح الاستاذ بعدها :

- قولوا لي ماذا جرى ؟ ماذا تريدون ؟

وفي تلك اللحظة اجابته مديحة :

- استاذ لا نفهم وانت سريع هكذا .

- طيب وبعد ؟

وأجابه آخر من الصفوف الامامية :

- الملاحظات تفوتنا ونحن لم نكتب شيئاً وليست هذه المرة الاولى التي نرجوك فيها

لكن الاستاذ كان من طراز آخر ، من اولئك الذين يعجبهم العناد ولكن في غير مناسبته واخذ ينقر المنصة امامه بعنف كي يهدىء من الجو الذي بدا يتكهرب قليلاً بعض العبارات من هنا وهناك ثم قال بلهجة صارمة :

- الذي لا يعجبه يستطيع ترك الدرس وتذكروا أن هناك ادارة يستطيع كل واحد منكم مراجعتها .

كانت مديحة جالسة امامي وبجانبها إحدى الطالبات وسمعتها تقول لزميلتها :

- ماذا يقصد ؟ ماذا يعني ؟ نخاف منه ...؟

- لكن مديحة لماذا انت عصبية هكذا ؟

- بهيجة انت دائماً (لا أبالي) أكثر الملاحظات فاتتني ؟

- أنا أيضاً بل لم أكتب شيئاً .

- طبعاً لانك ذكية والمحاضرة تطبع في ذاكرتك ...!!

وضحكا معاً ضحكة خفيفة وهمـا تستعيدان عبارة « انطباع الوان الطيف الشمسي .. »

وفي تلك الدقيقة حدثت المفارقة اللطيفة بعد ان أقبل الفراش وهمس في اذن الاستاذ شيئاً غادر بعدها القاعة وتبرع أحد الطلاب فأطبق الباب خلفه وانتشرت الضحكات العالية في أرجاء القاعة والنقاش والجدل .

ـ لا نريده ماذا يعني لم نستفد منه ؟

ـ صحيح لماذا يصر ؟

ـ لماذا لا نقدم عريضة ؟

وسألني زميلي الذي بجانبي :

ـ أترى كيف انه لا يكترث « يعني الاستاذ »

قلت :

ـ صحيح لكن ماذا نفعل له ؟

والتفتت « مديحة » الي فجأة وكأنني سألتها هي :

ـ ماذا نفعل؟ ليأتوا لنا بغيره . . . أكتبت شيئاً أنت ؟

ومرت لحظة رهيبة لم أفطن لحراجة السؤال فقدكنت أبذل جهدي كي لا يفوتني شيء وأجبتها متلعثماً :

ـ نعم كتبت ولكن ليس كل ما يجب

ونظرت الي مندهشة متعجبة ثم قالت :

ـ تسمح لي بدفترك أشوفه ؟

وناولتها الدفتر وشرعت تقلب صفحاته ثم سألتنى :

ـ أكتبت كل هذا ؟ ألم يفتك شيء ؟

ـ لا ... تقريباً ... لكنه يسرع أكثر من اللازم .

وكأنها ارتاحت لهذه الكلمة التي اطلقتها أنانيتي بينما فسرتهـــا هي تفسيراً آخر فقـالت :

ـ صحيح من أكثر اللازم ومن دون سبب .

واذا بزميلتها تقول لي :

ـ تسمح لي بالدفتر حتى استنسخ منه واعيده لك غداً .

ـ العفو تفضلي ... ابقيه عندك

ـ اشكرك

ـ العفو

كان الطلاب في شغل شاغل وحتى صاحبي الذي أخرج بسؤاله لساني من مخبئه انشغل مع آخر ودق الجرس ولم يرجع الاستاذ وفيما نحن نغادر القاعة التفتت صبحة الي مبتسمة وراحت وصديقتها تتمشيان في حديقة الكلية بينما وقفت منزوياً أرقب قامتها الممشوقـــة ووجهها المدور المضيء وشعرها الكستنائي وأستعيد كلماتها وأتساءل بغباوة :

« أية فكرة أخذت عني أتعجبت مني هكذا لأن لم يفتني من الدروس شيء ؟» انني أتذكر جيداً كيف عدت الى البيت يومذاك مبتهجاً فرحاً والوجه المدور المضيء والابتسامة اللطيفة يثيران في شعوراً غريباً لم أكن أفهم شيئاً منه لسذاجتي . كنت مبتهجاً لكن لماذا ؟ ألأن زميلتها استعارت الدفتر ؟ ام لانها هي ابتسمت ؟ ام لانني كلمتها ؟.. وبسرعة مـا توقعتها ولا كنت احسب اني جريء لهذه الدرجة ... أنا الذي افتقد الشجاعة حتى على التعرف بالطلاب او تحية اي طالبة التقي بها .

* * *

وفي صباح اليوم التالي كنت في طريقي الى الكلية وقد زايلني الشعور بالضيق الذي

كان ينتابني فيما مضى إذ كنت أقطع الطريق بين محطة السيارات والكلية إما متصفحاً كتاباً او دفتراً . أما في هذا الصباح فقد وجدتني ابتاطأ في مشيتي وأمعن النظر في واجهة قاعة الملك فيصل كأني أمر بها لأول مرة وكأن فيها ما يستحق التأمل ؛ هذه القاعة التي حدثني زكي عنها مرة ووصفها لي بعد مشاهدته حفلة تمثيلية أقيمت على مسرحها . وكنت كلما التفت الى الجانب الآخر من الشارع صدمني سور مستشفى المجاذيب الذي يبدو بغيضاً مقيتاً لانه يوحي بالألم والتعاسة التي طالما يشير اليها الطلاب في الكلية . اجسام ضخمة فارغة من العقول توحي بالاسف او نخيلة عارية في زمهرير الشتاء تهز الرائي وتتركه يتساءل «اللوجود» معنى بلا عقل ؟

ووصلت الممر الى الكلية وفي نفسي متناقضان يتنازعان طمأنينتها . الاشجار الباسقة والازهار الملونة التي تطرز ارض الحديقة في جانب وسور المستشفى الذي يبدو ـ لاهماله ـ كبقايا آثار موغلة في القدم تسكنها حيوانات مرعبة .

ولم اتذكر كتبي المحصورة بين اصابعي الا بعد أن لم يبق بيني وبين الكلية سوى خطوات قليلة فقلبتها متصفحاً كأني خشيت فقدان بعضها وتذكرت ان عندنا اليوم (كيمياء تحليلية) وخفق قلبي . اننا سنقف وجهاً لوجه ... أنا ومديحة في المختبر ! مديحة ألتي لم يعن وجودها قبل اليوم شيئاً بالنسبة لي ولكن اليوم ... ماذا دهاني ؟ وكانت صديقتها (بهجة) التي استعارت دفتري واقفة قرب الباب ، كانت قصيرة مكتنزة الوجه في عينيها جرأة وعلى شفتيها ابتسامة محببة بريئة وقد شجعتني بساطتها هذه على ان أحييها وفيما أمرق الى الداخل :

ـ صباح الخير

ـ صباح النور

ولكنها نادتني بعد ان لحظت أنني لم أتوقف .

ـ محمود

ـ نعم

ـ محمود هذا الدفتر وأشكرك

ـ العفو ••• هل أفادك ؟

ـ طبعاً ••• لقد كتبت كثيراً وخطك واضح ومقروء ••• أما عجيبة كيف كتبت كل هذا والاستاذ أسرع من السريع ؟

وفيما هي تضحك امتدت نظراتي مع الممر الذي جئت منه واذا بمديحة مقبلة ، كنت أريد أن أضحك ولكني عجزت حتى عن افتعال الضحك وشعرت بجسمي يرتعش وقلبي يدق بعنف واعتذرت من بهيجة التي اعتقدت انها فهمت شيئاً ما ودلفت الى الداخل كأني أهرب ••• والانسان يهرب أحياناً من عواطفه لكنه سرعان ما ينجذب اليها بقوة لا يصمد العقل أمامها أبداً •

• • •

كنا نقف حول المنضدة في غرفة المختبر في صفين متقابلين وامام كل اثنين حوض صغير فيه حنفية وبجانب كل منا مستلزمات المختبر من مواد ومحاليل و (مصباح بنزن) أيضاً • مصباح بنزن الذي ظل يرمز الى معركتي الاولى والى هزيمتي ايضاً وأسرعت الى مكاني بالسرعة التي يندفع بها الطالب الى قاعة الامتحان لكن سرعان ما يخرج منها وكأن رجليه مشدودتان الى بعضهما •

كان الاستاذ يروح ويجيء ويقف عند كل منا ملاحظاً مفسراً ، كان رجلاً محبوباً زاده شعره الابيض وقاراً وهيبة ومنظره يوحي بالهدوء لكن ••• قلبي المجنون ••• المذعور •• لم يكن ليأبه للاستاذ ولا للطلاب حولي ••• كان الامتحان عسيراً جداً • كيف سلمت علي

وناد ... ...

كنت ... سميكة

شيأ ... كنت

آخش ... وكأني

نادي ...

... أشعلت

مص ... ت نحو

العـ ... بعد ان

سق ... كة

بص ...

... ن كثيراً

ما ... دونه

المـ ...

- محمود هذا الدفتر وأشكر

...حية كيف كبت

...ذبحة مقبلة ،

...سمي يرتعش

... الى الداخل

...ب اليا بقوة

...صغير

فيه ...

...اً .

مصاب...

...اني

بالسر...

...ـه

مشدود...

شعره الا...

لم يكن ليأ...

ونادتني باسمي ؟ كيف عرفت اسمي ؟ أنا لم أسمعها تحييني قبل اليوم ٠٠٠ أبداً ٠٠٠
كنت اختلس النظر اليها والى الطالب الذي بجوارها ٠ لم الحظ من وراء نظارته السميكة
شيئاً في عينيه ولحسن حظي لم يحضر ذلك اليوم زميلي الذي يجاورني كل مرة ٠ كنت
أخشى ان يلحظ الاستاذ ارتباكي لكنني رأيت وجهه جامد التعابير ونظرت الى مديحة وكأني
ناديتها فرفعت رأسها فجأة عن انبوبة الاختبار التي بيدها وابتسمت ثم سألتني :

ـ هل أرجعت ببيجة دفترك ؟

وشعرت بجفاف في حلقي ويبوسة في لساني وقلت :

ـ نعم استنسخته بسرعة

ـ ولكنها ليست سريعة مثلك ٠ اسمع محمود ـ تسمح لي به ؟

ـ حاضر .

ومضت لحظات وأنا لا أكاد أفهم شيئاً من هذه الأدوات التي أمامي وأشعلت مصباح بنزن ذي اللهبة الزرقاء ومسكت انبوبة الاختبار بمقبضي لكن نظراتي انجذبت نحو العينين المناطيسيتين مرة أخرى واذا وجهها يضيء بابتسامة ساحرة ولم أنتبه إلا بعد ان سقطت انبوبة الاختبار من يدي ولذعت اللهبة الزرقاء أصابعي وسمعتها تهمس ضاحكة بصوت خفيض :

ـ محمود احترقت ؟

ـ لا ٠٠٠ بسيطة ٠٠٠ أصابعي شوية ٠٠٠

لا أدري ما شعور الطالب الذي كان بجوارها او الطلاب الاخرين الذين كثيراً ما تلصص عيونهم هنا وهناك كلما أحسوا شيئاً ٠ لكن الاستاذ اقترب مني وسألني بهدوئه المعتاد :

ـ ماذا جرى يا بني ؟

ـ العفو استاذ ـ وقعت من ايدي

ولا اعلم اذا كان قد فسر اضطرابي تفسيراً سطحياً أم لا فقد اجابني :
ـ لا بأس ... كن حذراً ... على كل حال .. لا بأس
قال ذلك وتركني اواجه هزيمتي أمام العينين المغناطيسيتين والابتسامة الساحرة ولم يدر ان الذي أحرقني لم يكن مصباح بنزن .

وجئت لها بالدفتر بعد مغادرتنا المختبر ونظرت إلى اصبعي الملفوف وهي تسوي خصلة من شعرها الكستنائي كانت تداعب جبينها وسألتني :

ـ أتألمت ؟
ـ لا .. لا أبداً ...
ـ لكن كيف وقعت ؟
ـ لا أدري أفلتت بسرعة .

ولم أستطع أن أنام في تلك الليلة وكم أقسمت للوسادة ان لا أنظر الى مديحة مرة أخرى بعد الحرج الذي زجني فيه قلبي المجنون ولكن الساعات كانت تمضي والوجه المدور المضيء والابتسامة الساحرة ما ينفكان يجذباني الى غرفة المختبر... اصابعي التي اكتوت، الأنبوبة التي تحطمت والهمسات المربكة التي تردد صداها في سمعي .. محمود ماذا ؟ احترقت ؟ كيف ؟ والضحكة الناعمة وسؤالها ، أنسيتها ؟... ويقفز الى مخيلتي الطالب بهجت الذي رأيته يكلمها مبتسماً فرحاً ووجهه مغمور بنشوة كأنها انعكاسات لابتسامتها.. لضحكتها .. من يكون ؟.. ما يكون بالنسبه لها ؟.. هل هو أخوها ؟. أم ؟. اوه ما أطول الليل ؟..

كانت ليلة ولم تكن كثيرها من الليالي . الليلة التي لم يكن فيها للزمن حساب عندي ولا معنى في تقويم أفكاري وأنا أتساءل : ماذا فعلت ؟ ماذا سأفعل ؟ وسمعت المؤذن

لأول مرة من الجامع القريب .... كان صوته ينساب عبر هدوء الفجر صافياً عذباً . ولم أعجب كيف مضت الساعات سريعة هكذا بل كنت استعجلها كي أمضي الى الكلية لاكون قريباً منها .

٢

كان الطلاب يتحادثون في موضوع واحد تقريباً ورأيت بعضهم يحمل بطاقات حفلة تمثيلية ويبيعونها للآخرين . وكنت واقفاً في احدى الزوايا حين اقترب مني اثنان يتراكضان وكان الاول يضحك بينما الذي يتبعه يصيح :

ـ أرجوك خليل أتعبتني . . .

ـ ماذا تريد ؟ . . أما عجيبة

ـ الفلوس يا أخي .... أو البطاقة

وتوقفا قليلاً وكان الهارب يضحك وهو يقول لصاحبه :

ـ شوف سلمان .... أما الحفلة فلازم أشوفها وأما فلوس فما عندي

ـ يعني ربع دينار ما عندك ؟

ـ واذا ما عندي ؟ عيب ؟

ـ أرجوك اترك الجدل .... تدفع بكره!!

ـ لا .... بعد بعد بعد بعد بعده

ـ يعني ؟

ـ يعني بعد اسبوع

ـ يا أخي موعد الحفلة بعد اسبوع

ـ كل يوم تنقلب مئة عمامة ‥ لا تستعجل ‥ ربما أدفع لك بكره

ـ على كل حال المسألة مسألة تشجيع

كنت أنصت اليهما وعيناي متجهتان الى الحديقة والتفت حين سمعت جواب الآخر:

ـ بعد يوم او يومين البطاقات تخلص ومنين أحصل وحده واذا صارت المسألة جد فغداً صباحاً بعونه· اهه اهه اهه ..... ها رضيت ؟

ـ كانت مديحة متجهة نحوي وعلى بعد خطوات نادتني :

ـ محمود

ـ نعم

ـ اشتريت بطاقة ؟

ـ ما اشتريت بعد سأشتري من الأخ

وأشرت اليه بيدي ولكنها فاجأتني :

ـ أنا أبيع لك ..... عندي ..... كلفوني ببيع قسم منها .

ثم لمعت في عينيها نشوة بالفوز وتابعت :

ـ واحدة ؟

ـ لا اثنتين

وارتسمت على قسماتها فرحة خفيفة وهي تخرج البطـاقات من جيب معطفها بينما اسرعت يدي الى الدينار الذي ظل أياماً في جيبي ولا أدري ماذا اشـتري به وأعطيتهـا اياه وقبل ان تتركني قالت :

ـ أرجع لك الباقي بعد قليل

ـ ولم العجلة ؟

ـ لا ، . لا . . سأعود حالاً

وفيما كنا نغادر الكلية استوقفتني

ـ محمود تسمح تنتظر شوية حتى أعطيك الباقي

ـ شكراً . .

ـ أنا أشكرك

ـ لأي شيء ؟

ـ لأنك اشتريت

ـ لكن هذا واجب

ـ صحيح هذا واجب فالفرقة ممتازة ومسرحياتها دائماً رائعة ؛ شاهدت تمثيلها في العام الماضي ؟

ـ لا

وأقبلت زميلتها بهيجة التي كانت الظروف سخية بوجودها . ومشينا الطريق بين الكلية ومحطة السيارات نتحدث عن الاساتذة والدروس ووصلنا قريباً من نهاية الشارع حيث توجد القاعة فسألتها :

ـ ستقام الحفلة هنا ؟ انها تبدو قاعة فخمة

ـ ألم ترها قبلاً ؟

ـ أنا لم أر بغداد قبل هذه الايام فأنا من الديوانية .

ـ والبطاقة الثانية لمن إذن ؟

ـ عندي صديق سأدعوه

كان زحام الناس شديداً وهم يتحرقون انتظاراً للسيارات وودعتنا صديقتها بهيجة ومضت على الرصيف المحاذي للسجن الكبير المواجه للمكتبة العامة ثم التفتت مديحة الي ضجرة .

- كل يوم نفس العذاب.... زحام وتدافع .... هذا وضع ؟
- صحيح .... تصوري امس ما وصلت بيت عمي الا بعد ساعة أو أكثر
- انا مثلك ولست وحدك .... انا وانت وأكثر الناس .... كل يوم .... كل يوم
- بيتكم بعيد ؟ في الكرادة
- لا.... في السعدون ....

وكنت لا أعرف عن هذا الاسم سوى التمثال المنصوب في الباب الشرقي من بغداد ولم أكن أعلم ان هناك حديقة كبيرة لها هذا الاسم أيضاً وصعدنا إلى السيارة ولم تسعفني الظروف هذه المرة فقد تنازل لها أحد الركاب عن مقعده وكنت أقاوم المتدافعين لأبقى واقفاً قريباً منها على الاقل ؛ كانت تتشاغل بتفحص كتبها تارة وأخرى تنظر عبر الزجاج الى اشجار الكالبتوس الضخمة الممتدة مع شارع السعدون ثم تلتفت وتبتسم، كنت في كل مرة اغادر السيارة في محطة الباب الشرقي لأذهب من هناك الى الكرادة في السيارات الاهلية ولكن شيئاً ما ، كان يشدني الى مكاني هذه المرة وحين نهضت مديحة وغادرت السيارة وقفت على الرصيف ثم ابتسمت لي وكدت أفقد توازني فيما السيارة تتحرك وأنا أودعها .

وفي مساء ذلك اليوم تسلمت رسالة من زكي وكنت انساناً آخر ولم تحتو رسالته غير السؤال عن الصحة والراحة والاستفسار عن سير الدروس ثم ملاحظة صغيرة في اسفلها « كيف تجد بغداد ؟ » وكنت قبل أن أتسلم الرسالة أحس برغبة في التحدث مع أحد ولعل احساساتي الملتهبة حين كنت أكتب له هي التي صاغت رسالتي بهذا الشكل .

اخي العزيز زكي
السلام عليك

تسلمت رسالتك عصر اليوم وأي يوم هذا ؟ لقد فرحت بها كثيراً لأني فكرت ان أكتب اليك صباح اليوم . أنا مشتاق إليك ؛ الى رؤيتك ، الى التحدث معك ، أتمنى لو

نكون معاً الآن اذن لتعجبت مني . أكاد أطير ٠٠ أطير فرحاً أطير وآتي اليك لافضي لك بشيء مهم .... أهم من كل مهم أتدري ما هو ؟ لقد تعرفت على طالبة معي في الكلية انها تشغل فكري كله تصور اني لم أنم ليلة أمس بتاتاً كنت افكر بها فقط أتصدق؟ ماذا تقول في هذه المسألة ؟ واليوم حصلت على بطاقتين منها لحفلة تمثيلية ستقيمها فرقة ٠٠٠ على مسرح القاعة التي كنت تحدثني عنها . يجب ان تأتي . حصل على اجازة يومين قبل الجمعة . تعال ارجوك أريد ان أقول لك أشياء كثيرة عندما تأتي ٠٠٠

المخلص محمود

وقبل موعد الحفلة بيوم تسلمت جوابه وكنت قلقاً قبل أن يصلني ذلك الجواب الذي دلني على أشياء ما كنت أعرف أن لها بحياتي صلة كصلة الروح بالجسد ، صلة استحالت فيما بعد الى جزء من وجودي .

عزيزي محمود

سلاماً

وصلتني رسالتك المؤرخة ٤ منه ودهشت وتحيرت أيضاً . ماذا دهاك قل لي أأنت كتبت الرسالة حقاً ؟ لكن كيف .!!؟ أنا أفرح لفرحك كما تعلم لكن انشراحك يبدو اكثر من اللازم . أتدري ماذا قلت لي؟ قلت أنك تحب انما باسلوب آخر ولكن تذكر يا محمود ان الطيران من غير تبصر لا يؤدي الا الى السقوط ودفع الثمن تذكر المثل: «ما طار طير وارتفع» ثم أبهذه السرعة أحببتها . . الله الله . . . الانها كلمتك او نظرت اليك او ابتسمت لك لا

أدري... ومن أدراك انها لا تحب رجلاً غيرك ؟ ارجو الا تطير بهذه السرعة .
وسوف آتي الى بغداد . تحياتي واشواقي .

زكي
المخلص

وطويت الرسالة وأنا شبه نادم لاني أخبرته . لم أتوقع انه سيسخر مني بهذا الشكل . لم أقل له انني احبها انما هو الذي استنتج كعادته دائماً وحاولت ان أتذكر رسالتي اليه وتأكدت انني لم أقل له اكثر من (تعرفت) ولكنه قال لي « أهكذا بهذه السرعة ؟» ومع ذلك فاندفعت بنفس شعوري الاول وانتظرته في المحطة وأبيت عليه الا ان يأتي معي الى بيت عمي وحاول ان يصر على الذهاب الى الفندق ولكن الحاحي اجبره على الرضوخ. ولم أخبر عمي أكثر من أنه كان صديقي في الديوانية ولا يزال فرحب به عمي الذي كان يبالغ أحياناً في تدليلي حتى ان زكي المح الى ذلك عندما تمدد كل منا على سريره وقال لي:

- أنت في جنة الآن ماذا تريد بعد؟
- جنة ؟ ها .. ها .. تقصد عمي انه يحبني كثيراً وهو ليس له اولاد ايضاً .
- لست أقصد عمك وبيته فقط بل الحورية التي سحرتك .

أرجوك زكي انت آلمتني في رسالتك كثيراً وعدت الآن تهاجمني ؟
- ماذا ؟ آلمتك ؟ تألمت لانني قلت لك تمهل ولا تندفع ؟
- ولكني لم أقل لك انني أحبها
- أتعتقد انني (غشيم) ... انت تعرفني وانا اعرفك
- أنت تفسر الاشياء بغير الحقيقة اتذكر مسألة الطيران
- ها ها .. صحيح .صحيح. والان ايضاً أقول لك ربما لا تكون لها رغبة في الطيران فماذا تكون النتيجة ؟

ـ زكي اسمع انت تقول اشياء ما فكرت بها ابداً .

ـ اقسم

ـ ولماذا اقسم الا تصدق ؟

ـ أنا أقسم اذن . أقسم انه سيأتي يوم وتقول إنك تقدسها وتقسم بها . لكن قل لي هل هي جميلة ام مثقفة ؟

ـ ماذا تقول

ـ اقول لك هل هي رشيقة خفيفة الدم فاتنة ام ان جمالها في عقلها .

ـ المسألة بسيطة فلماذا عقدتها الى هذا الحد ؟

ـ محمود انا صديقك فلماذا تضيق بصراحتي ٠٠٠ كنا نتكلم بصراحة قبل اليوم ، هل تغيرت ؟

ـ انت عقدت المسألة

ـ طيب ٠٠٠ دعها الى غد ربما نتفاهم

ولزم كل منا الصمت بضع دقائق لكن كلماته التي زلزلتني كانت تقض مضجعي وفيما أخذ النعاس يغالبه عاودني كل النشاط فسألته :

ـ زكي ماذا تقصد بجميلة أم مثقفة ؟

ـ ها . . . تذكرت من جديد ؟

ـ لا . . . لا تمزح أرجوك

ـ أقصد ان بعض الطالبات أو لنقل النساء دمى جميلة لطيفة خالية من معنى الحياة وهو الثقافة وبعضهن بالعكس .

ـ واذا كانت الفتاة التي اخبرتك عنها مثقفة

ـ اذن ستتعب كثيراً قبل ان تفهم شعورها .

- أتعب ؟ لكنها بسيطة وليست متكبرة متعجرفة

- صحيح أسمعت ان المثقف يتكبر او يتعجرف . . . أبداً

وتأوه صاحبي وهو يتمتم « رحم الله شوقي . . »

وسألته حانقاً :

- وما لنا ولشوقي ؟

- لا شيء ..... لكنه قال نظرة فابتسامة و .....

- عدت تسخر مني ثانية.

° ° °

وفي طريقنا الى الحفلة وكنا نسير على رصيف شارع الرشيد عاد زكي فسألني عما رأيت وأنا أعدد له وأمتدح ما أعجبني وما لم يعجبني وحدثته عن الكلية والاساتذة واستاذ الفيزياء بوجه خاص وعن الدروس وعن مستشفى المجانين وما يجري فيه مما أشاهده كغيري من الطلاب كل يوم وكان لا ينفك يستزيدني لكنني كنت اضيق كلما إلتقى به صديق وراح واياه في انسجام بعض الوقت في السؤال عن الحال والكيف وتعجبت فسألته : متى تعرفت بكل هؤلاء ؟! كل خطوتين ثلاث صديق !!. وأجابني ضاحكاً :

- اني على الاقل اكبر منك بأربع سنين ، ثم الا تذكر انى اخبرتك عن الكلية التي حرمت منها والوظيفة التي اضطررت على الاحتفاظ بها اضطراراً حتى نقلوني الى الديوانية انت تعرف هذا فعلام تسأل ؟

واتخذنا مكاناً مناسباً في القاعة التي لم اكن اتصورها بذلك الشكل والتنظيم والضيق ايضاً ومضت دقائق واذا بالقاعة تكاد تغص بالداخلين مع انه كان لا يزال بعد أكثر من

نصف ساعة لبدء التمثيل . وأخذ زكي يحدثني عن الفرقة وما شاهد لها من تمثيليات فيما مضى وأدركت انه معجب الى حد غريب بهذه الفرقة واسترسل وهو يحدثني عن الادب المسرحي والمسرحيات والمسرح العراقي لكنني كنت مشغولاً عنه ، كنت أحوم بعيني في الجوانب واتطلع الى الابواب حيث كانت تفد عشرات الفتيات ولم انتبه الى ان زكي لحظني وكدت اقفز من مكاني فرحاً حين رأيتها تدخل ، كانت جميلة واجمل مما كان يصورها لي خيالي المسكين وفجأة اقبل بهجت.... هو نفسه مرة أخرى وأحسست بالخيبة تغطي برمادها عواطفي التي احترقت لحظتئذ .

كنا جالسين في صف من المقاعد ، يتقدمه عمر . وما أن إقتربت مديحة منا ورأت زكي حتى اذا بها تحيينا باندهاش .

ـ هالو زكي أنت هنا ؟.. مساء الخير

ـ وأجبنا معاً :

ـ مساء النور

وتابع هو :

ـ جاء بي الأخ (وأشار إلي بيده) ولكنها فاجأته :

ـ من ؟ محمود ؟ .. أنتما صديقان ؟

ـ أتعرفينه . . .

ـ طبعاً ؛ معنا في الكلية

وكانت ابتسامة بلهاء تطوف على شفتي ولم أدر ماذا أقول . ثم سألها صاحبي :

ـ أنت دخلت الصيدلة اذن .... ممتاز ممتاز .... أتأتيكم أخبار عن شوكت

ـ سيخرج قريباً لم يبق له الا مدة قليلة ، ستة أشهر .

ـ أنت تزورينه طبعاً ،

- في الشهر مرة ؛ هكذا يريدون .
- على كل حال أرجوك ان تسلمي لي عليه كثيراً .
- شكراً .

واستأذنت ثم ذهبت لتجلس حيث يجلس ذلك الشخص الذي كان يتجسد فيه البغض والكراهية والحقد الذي تستفزه غيرة عمياء جنت في تلك اللحظات المشؤومة بنفسي ولا أدري الى أي حد كنت اشعر بالمقت له : كنت في شبه غيبوبة من الذهول وقلبي يضرب بعنف وسألني زكي متعجباً .

- محمود مابك ....
- لا شيء .
- انها فتاة ممتازة مثقفة ثقافة عالية .

وانحسر الستار وبدأ التمثيل ؛ كان التصفيق حاداً والحماس على أشده بحيث كاد الجمهور ينفجر في مظاهرة صاخبة وكان زكي يكاد يمزق راحتيه بالتصفيق ولا ينفك يهمس في سمعي: أتلاحظ .... عظيم .... أتسمع ؟ روعة ، روعة ، وكنت أصفق وأويده لكنني عبثاً حاولت مشاركته حماسه . كانت رغبتي بترك القاعة تتزايد دقيقة بعد أخرى فسألني زكي بعد انتهاء الفصل الاول :

- محمود ماذا جرى ألا تخبرني ؟
- لا شيء ماذا تظن ؟
- ولكنك غير مرتاح ماالمسألة ألا تقول ؟
- قلت لك لا شيء يا أخي .... لماذا تلح علي هكذا ؟
- طيب .... اظن أنني فهمت شيئاً ما وسنتكلم في الموضوع بعد انتهاء التمثيل .

وفي الفصل الثاني كنت اراها تصفق بحماس ولكن لم ألحظها تبدي اهتماماً بهجت كانت بجانبها فتاتان لم أرهما قبلاً وأتذكر انهما التفتت مرتين او ثلاثاً ولا أدري ان كانت تلتفت إليّ أم الى زكي لكنني شعرت بنوع من الضيق من زكي !! كنت أغار لكنني لم أعرف

بعد حقيقتي أبداً الا أن زكي هو الذي أرانيها ونحن في طريق العودة إذ سألني فجأة :

ـ محمود لم تقل لي شيئاً بعد عن الفتاة التي كتبت لي عنها .

ـ قبل ان أجيبك هل تخبرني كيف تعرف مديحة ؟

ـ إذن هي مديحة ..... هـا

ـ كيف تستنتج ؟ لا أدري ... شيء عجيب

ـ انها بالتأكيد هي . لقد كنت لا تنفك تنظر اليها .

ـ لماذا تربط بين المسألتين . اني سألتك كيف تعرفها : ومن هو شوكت؟

ـ انت تسألني دون ان تجيبني

ـ ولنفرض أنها هي فماذا يعني ؟

ـ علام انت عصبي هكذا .. انه مجرد سؤال لا أكثر .

ـ مجرد سؤال أم انك معجب بها .

ـ انت تفكر كالمراهقين .. ماذا دهاك اذن فانا ازاحمك يا غريمي

ـ أرجوك زكي لا تسخر

وضحك وهو يربت على كتفي بحنان أخوي ولكن سخريته أضرمت في قلبي ناراً كنت عاجزاً عن إخمادها وبعد قليل سألني :

ـ لو كنت قلت لي من الاول وأرحتني وأرحت نفسك .

ـ عن أي شيء ؟

ـ لو أخبرتني باسمها على الاقل .

ـ هل أنت عرفت اسمها وعرفتها ورأيتها و..

ـ على كيفك على كيفك أنا صديقك أم عدوك ؟

ـ ولكنك تسخر يا زكي

دعنا نتكلم بجد .. أترضى ؟

ـ أعرف .. ستلقي علي موعظة . ولكني احبها احبها احبها .

ـ الا تدعني أتكلم ؛ اقول شيئاً ؟

ـ ماذا تريد ان تقول ؟

وصرخ بي :

ـ المسألة مهمة وضروري ان نتفاهم

وفجأة كنت كالطفل الوديع وراح يصب في اذني كلماته بهدوء وكأننا لم نتصايح منذ لحظات .

ـ أقول لك فكر بالمسألة جيداً أنت في بغداد وكل شيء جديد عليك والحب شيء سهل من جانب واحد ومن مثلك بصورة خاصة ثم أتظن انها تحبك ؟ واذا لم تكن كذلك فماذا ستفعل ؟ تنتحر ؟ هه

ـ أترى كم تطورت المسألة ؟

انت في السنة الاولى واذا لم تتريث فستندم

ـ أندم على ماذا ؟

ـ تندم حتى على عمرك .. أنا لا اقول لك دعها وشأنها . لا ابداً لكن فكر جيداً قبل أن يكون حبها عقبة . . . اتعرف ماذا أعني .

ـ لا والله

ـ الحب الذي يتطور الى عبادة سرعان ما ينقلب الى كفر لأن ليس للعقل حكماً عليه .

٤

ما اسهل ما يرضى الانسان عن نفسه حين يخدعها بسرعة وبساطة وكلما صرخت الحقيقة ببصيرته اسرع الى الافيون ، الى كل فكرة تيسر له الوصول الى الرضا والطمأنينة

والراحة . والذين يركضون وراء السراب لابد لهم ان يقفوا أخيراً وهم يلهثون ويتساءلون بكل خيبة « إذن كنا مخطئين » وقد تحيل الخيبة الانسان الى كائن لا يعرف سوى التمرد ولا يعيش الا به ولكن على نفسه فقط حتى يموت وهو نادم لأنه خلق ، وربما لا تكون كذلك رغم عناصر الاندحار التي تحملها الخيبة فقد يسرع الانسان مرة أخرى الى الينبوع بعد ان يتنكب طريق السراب .

ويوم أحببتها لم أكن أعرف معنى المستحيل لان افيون الخداع كان يخدر في نفسي كل سؤال ثم يقتله . ومع ذلك فقد رحت أبحث عن المستحيل وحين كدت أتدحرج من قمة الآمال الى هوة الخيبة السحيقة أمسكت هي بي صائحة ثم.... ثم علمتني ما هو المستحيل .

نعم هي التي علمتني ؛ ان الكثيرين يأنفون من أن تعلمهم امرأة ولكن أي رجل لم تعلمه المرأة الكلمات الأولى . وهكذا فان طريق الحياة من غير نور لا يمكن أن تواصل السير فيه حتى الحشرة العمياء .

لم أكن أتصور يوماً ما أنني سوف أتفلسف بهذا الشكل المضحك - لي على الأقل - انا الذي كنت أجهل مكاني او وجودي ومبرره ، حقوقي وواجباتي ، إنسانيتي ، ولكنني تعلمت أشياء كثيرة عن كل ذلك ولم تكن هي التي لقنتني إنما أضاءت لي الطريق وظلت أيامي مضيئة بحبي لها حتى اليوم رغم ان الغبار الذي حملته عواصف الايام يكاد يغلف تلك المصابيح ولكن الظلام لا يمكن ان يحول دون النور الى الابد ان ابتسامة الفجر تكفي لأن تفخر بالحياة ودموعه الصافية فيها معنى إنسانيتنا .

لقد كنت أحس بتفاهتي كلما سمعت الطلاب يتناقشون في موضوع سياسي ويتحمسون ويتعاركون أيضاً كنت كعجينة باردة وكان العذاب يعصر روحي ورغبة ملحة تهزني من الخور الذي كان يشل كياني . أي شيء هي الديمقراطية ومعنى هذه الاشتراكية والرجعية والتقدمية ، والحرية .. نعم .. كل هذا وأكثر من هذا .. كنت أجهل حتى

التعاريف الموضوعية البسيطة .. لم أكن أقرأ جريدة ولا كتباً غير الكتب المدرسية .. ولعل تفاهتي هي التي كانت تضطرني للكذب أحياناً فهو فضيلة كما يقولون ، ولكن ليس في كل وقت .

° ° °

كنا نسير مرة في طريقنا الى الكلية الطبية لحضور احدى المحاضرات وكان الطلاب يسيرون فرادى وجماعات وكنت أرى وأسمع بعضهم وهم يتجادلون بعنف وكنت أسير لوحدي على الرصيف تحت أشجار الكالبتوس الضخمة . أجل لوحدي مع ان الشجاعة الادبية كما يقال قد حطمت أكثر القيود التي كانت تشدني الى الوحدة والانطواء ولكن شعوري بأني لا أجد شيئاً ما كان يجرني بعيداً عنهم ، كنت ألتفت الى الوراء هنا وهناك حائراً ورأيتها تسير لوحدها مرتدية معطفاً أحمر وقد انحسرت ياقته عن صدر يموج بالانوثة والحياة والجمال وقد انعكست أشعة الصباح على شعرها المنسدل فوق كتفيها فزادته سحراً وروعة ، لم اكن انظر اليها بهذه الجرأة قبل ذلك الحين ولكن قلبي خفق بشدة وكأنه صاح بي : قف ..... أنظر ..... وتمهلت في مشيتي حتى اقتربت وفي تلك اللحظة خلقت الصدفة التي تجمع رجلاً وامرأة ..... كنا نسير والوهم يجسم لي شعور الطلاب نحوي كنت لا ألتفت ولا أنظر الى جهة ما حتى الى وجهها ، الى شفتيها الورديتين وهما تنفتحان عن ابتسامة الياسمين بعد الشروق ، كان شعوراً خاصاً يهزني والحياء يضغط على قلبي وأنفاسي ولم تطق صمتي فسألتني بصوت حنون ونبرة رقيقة كان فيها من براءة الطفولة ما لا أستطيع وصفه .

ـ أعجبتك الحفلة ؟....

ـ طبعاً ،

ـ كان التمثيل ممتازا ..... لو فسح المجال لهذه الفرقة ..... لو .....

وأجبتها بغباوة كعادتي .

ـ متى سيمثلون مرة أخرى ؟

ـ من يدري بعد سنة أقل او أكثر ..... من يدري ، يضعون امامها الف عقبة ويمنعوها بصورة غير مباشرة .

ـ لكن ما السبب والفرقة ناجحة وتمثيلها جيد .

وضحكت وهي تقول :

ـ النجاح هو السبب ..... لو كانوا تافهين لسمح لهم كل اسبوع ..... الشرطة كانت في كل مكان ..... تذكر؟

ـ صحيح وانا استغربت ؟ انها مسرحية ، لا أكثر ولا أقل .

وقبل أن تجيبني كانت صديقتها بهيجة قد لحقت بنا وتخطينا باب كلية الطب الى الداخل وافترقنا . وانتهت المحاضرة قبل ان انتهي من إقناع قلبي بالانتظار ، كنت أريد أن أقول لها شيئاً ما . . ولكن ليتني لم أشاهد الحفلة ٠٠ كنت أبحث عن وسيلة ٠٠ فما اكثر ما يقول الرجل للمرأة (أحبك) ولكن في السينما فقط ٠٠٠ في الخيال ٠٠٠ حيث تكون هناك جرأة كافية وخيالي أنا بالذات هو الذي دفعني الى شراء كتاب (الشاعر) سيرانو دي برجراك بعد ان شاهدته في السينما ..... كنت أريد ان أناجيها مناجاة ذلك الشاعر الولهان لحبيبته ولكن الزورق اندفع بي في غير الاتجاه ..... الى غير الشاطيء الذي كانت تصوره لي العشرون عاماً من حياتي الخالية ..... الصامتة ..... المظلمة وكانت عيناي تبحثان عنها واذا بها تنتظر ..... تنتظرني ..... أيمكن ان تجامل السماء انساناً مثلي الى هذا الحد ؟ لقد حمدت الله في نفسي وشكرته أيما شكر . وما كدنا نسير قليلاً حتى سألتني :

ـ محمود رأيك في المذكرة ؟

ـ مذكرة !٠ أي مذكرة ؟!٠
ـ المنشورة في الصحف اليوم ؟
ـ لا والله أنا لا أقرأ الصحف الا نادراً لكن المذكرة حول أي شيء ؟
ـ رفع طلبة الكليات مذكرة الى الجهات المسؤولة حول الوضع العام في البلاد وكليتنا طبعاً من بينها .
ـ سأشتري جريدة لكن في أي جريدة ؟٠
ـ أنا سأعطيك النسخة التي عندي ....
ـ لا.... أنا سأشتري واحدة
ـ ولكنني قرأتها .... على كل حال إشتر واحدة . نسيت ان أخبرك ان فيها كلمة لزكي
ـ صحيح ؟ زكي ؟ لكن لماذا لم يخبرني ؟
ـ لماذا تتعجب !؟ ينشرون له في كل اسبوع او اسبوعين كلمة ومنذ عدة شهور
ـ محمود ٠٠٠ أتراسله ؟
ـ نعم ،
ـ اذن ارجو اذا كتبت له اكتب له تحية مني ومن أخي شوكت .
ـ أليوم أكتب له رسالة .

° ° °

لم يكن عمي قبل مساء ذلك اليوم قد رآني أقرأ صحيفة سياسية أبداً كما انني لم افكر ان له رأياً خاصاً بهذا الشأن بل لم اكن اعلم انه يتفحص كتبي ويدقق النظر في مكتبتي ولعله لم يكن يفعل الا بعد ذلك المساء حين جلسنا في غرفة الاستقبال بعد العشاء نتحدث قليلاً كعادتنا كل ليلة ولمح الجريدة على المنضدة مع الكتب فأطال النظر اليها ولم يقل شيئاً إلا ان نوعاً من الرعب إرتسم على وجهه وهو يقرأ اسم الجريدة ثم سألني :

ـ محمود ٠٠ بابا اليوم عندك جريدة ، السبب ؟

ـ اي والله يا عمي أخذتها حتى اغلف بها كتبي .

ـ لكن لماذا لا تشتري حقيبة ؟ ٠٠ أليس عندك نقود ؟

ـ عندي ٠٠ عندي ٠٠ لكن أكثر الطلاب لا يحملون حقائب

ـ لماذا ؟ عجيب !

ـ ثقيلة ولا داعي إليها .

ـ الحقيبة احسن من الجريدة يا بني

ولزمت الصمت ، فبماذا أجيبه ؟ أأعترف له بالسبب ؟ هذا محال ثم انه قد صدقني بشكل عجيب مع اني كذبت عليه ولعله تظاهر بتصديقي .

وإذ لم أجبه عاد متابعاً :

ـ وهل قرأتها ؟

ـ اي نعم

ـ أأعجبك شيء فيها ؟

ـ والله يا عمي تريد الصدق ٠٠٠ إذن فاقول لك اي والله .

ـ أنت لم تر بغداد ولم تعرفها بعد يا بني . انت لا تزال بعد صغيراً وأنا ـ كما تعلم ـ لا أريد لك غير الخير والدين النصيحة ٠٠

ـ ماذا تقصد يا عمي ؟

ـ أقصد هذه الجريدة ٠٠ واذا اردت ان ترضيني وترضي أباك فاتركها لاني اسمع عنها كثيراً

ـ يعني ماذا تسمع ؟

ـ يقولون انها تكفر والعياذ بالله وما لك ولهذه المسائل وانت طالب في الكلية ؟

ـ طيب يا عمي سوف لن تراها معي مرة أخرى.

وتركني عمي ومضى لينام وقبل أن ابدأ بمطالعة الدروس أعدت للمرة العاشرة قراءة المذكرة وكلمة زكي ايضاً ولكم فرحت بها . لكأني انا الذي كتبتها ، كنت أشعر بانفعال عجيب كلما أعدت قراءتها . انني لم أعرف زكي على حقيقته الا هذه المرة . كنت اتصوره جالساً معي يحدثني بصوته القوي النبرات ولهجته التي تقسو أحياناً . كانت الكلمة المنشورة صغيرة ومحصورة في مستطيل وفوقه كلمة (بريدنا الادبي) وتحتها ما يلي :

جاءنا من السيد زكي حسون في الديوانية الكلمة التالية بعنوان « الموكب الصاعد »

ان الانسان الذي يعمل عن وعي وادراك وثقة لاجل الخلاص مما يشوه الانسانية ويمسخ كرامتها ومن العبودية التي يخيم ظلامها على عقله ومن القيود التي ترسف بها حريته ؛ ان هو الا مظهر للحياة التي تتمثل بها الحضارة ٠

وهناك المتفرجون الذين يسيرون على الرصيف ؛ يتسلون بمشاهدة الطريق المفروشة بالجماجم والاشلاء وكأنهم ينتظرون ان ينتهي غيرهم من تعبيد الطريق ليتحولوا اليها ، ان اولئك ليسوا سوى مظهر للتفسخ الوجداني والانحلال الذاتي والعقم الفكري ، وانسان من هذا النوع لا تزيد قيمته عادة على قيمة حشرة ـ مع انه انسان ايضاً ـ حشرة لا أكثر وربما اقل ٠

فنحن مدينون لشهداء الحرية في كل مكان حرية الانسان في كل زمان نحن

مدينون لهم بما لدينا من قيم نعتز بها ومثـل تنافح عنهـا . الشـهداء الذين يضيئون لموكب الانسانية طريقه الى الابد ... « والى كل الاحرار ابعث تحيتي »

• • •

وأخذت ابحث عن وسيلة مقنعة يهدأ لها ضميري وقلبي فلم أجد غير مـا أرشدني الواقع اليه . كان في مدخل الشارع المؤدي الى بيت عمي دكان لبقال عجوز لم تكن معرفتي به لتتعدى السلام صباحاً وعصراً وكان يبدو طيباً بملامحه وابتسامته وحتى الطريقة التي يرد بها على التحية . ومر أسبوع وانا أحاول توطيد المعرفة بيننا حتى جاء الوقت الذي فاتحني هو بحاجته الى الورق للف السكر والشاي فأخبرته انعندي جرائد كثيرة وفرح ثم شكرني. وبعد ذلك كنت اعطيه الجريدة كل يوم بعد ان اقص منها ما يعجبني وأحتفظ به . وفي عصر يوم لحظت ان ابتسامته تقلصت ونظرة غريبة رمقني بها وهو يرد تحيتي وفي المسـاء فاجأني عمي :

ـ محمود ... أنت وعدتني أنك لن تشتري الجريدة .

ولم أجبه ، لقد فهمت ما يعني تماماً فالبقال لاشك أخبره . ثم تابع هو بلهجة عتاب ونصح .

ـ «للحايط آذان» يا ابني انت في بغداد وانا اخاف عليك ولنفرض انك تحب قراءتها فلماذا تعطيها للبقال أتعرفه ؟ أيعرفك ؟

وتحرك لساني اليابس في فمي :

ـ حسبته يستعملها في الدكان .

ـ يا ابني الشياطين بكل مكان ترى وتسمع ولا يراها ولا يسمعها أحد .

ـ ولكن يا عمي الجريدة تباع بكل مكان في بغداد والناس يشترونها

ـ صحيح .. ماذا تعمل بها ما دام عندك راديو تسمع الاخبار ؟

وهممت ان اعترض كأن أقول مثلاً « ولكنها ضرورية » و « لماذا لا تحب ان أقرأها » ولكن الحياء عقد لساني ولمع في ذهني خاطر فسألته بهدوء :

اسمح لي يا عمي هل تقصد كل الصحف او هذه بالذات .

ـ لا ... لا .. الكل ... الكل ... الله تعالى ساتر علينا أترك هذه المسائل، اوصيك يا ابني ولا تجعلني ألح عليك بعد .

واضطررت اول الامر للانقطاع عن شراء الجريدة التي كانت مديحة اول من هداني اليها . ولكن الايام كانت تمر مظلمة .. وفي المساء حين اضع راسي على الوسادة تتجمع هموم كثيرة تنغص علي راحتي وتورقني . فماذا أقول لمديحة اذا سألتني عن السبب؟ كنت أشعر بالتفاهة حين أتصور نفسي وأنا أخبرها عن عمي واتخيل ابتسامتها الساخرة .

كنت أرى في عينيها بريق الرضا والنشوة حينما نقطع الطريق التي اعتدناها كل يوم ونحن نتحدث عن الافتتاحية او عن بعض ما في المحليات او عن الصفحة الادبية وهكذا.. ولكنني بدأت أهرب منها خجلاً .. ولا أحاول ان التقي واياها ولكن عبثاً .. لقد كنت اخدع نفسي لا أقل ولا أكثر .

٥

كانت ادارة مستشفى المجانين المجاور لكليتنا تسمح لغير الخطرين منهم بترك المستشفى فكان بعضهم يتجول في الممر بين كليتنا وكلية الطب في الحدائق وعلى الارصفة فمنهم من يلتقط اوراق الكالبتوس اليابسة ويسحقها براحتيه ويلف المسحوق بقصاصة ورق يلتقطها من الارض ايضاً او يستعيرها ممن يلاقيه ويجعل من ذلك لفيفة يستنشق دخانها بزهو وفخر . ومنهم من يقوم باعمال الكنس والتنظيف ولا يبدو عليه أنه فقد شيئاً من وجوده أبداً لولا مظهره الذي يرسب في النفس شعوراً بالحزن .

كانوا يعيشون لغير ما سبب عدا لكونهم بشراً . يبكون ويضحكون ويتألمون ويفرحون... ولكن النزاع .. الحرب فيما بينهم هي الوسيلة الوحيدة التي ينتهي اليها وبها كل شيء بينهم .

وكان أحدهم يدعى (حمندوش) قصيراً أسمر البشرة يلف رأسه دائماً بخرقة يعتز بها وبلونها الذي تكون من مجموعة اوساخ وقذارات ؛ اما لحيته فكان يصر على اهمالها ويستهين بقطع رقبته دونها وكان حين يستبد به الطرب يجمع عدداً كبيراً من المرضى معه ثم يتوسطهم ويشرع في الغناء بصوت عال ولم يكن ليفرحه شيء أشد من ان يقترح عليه أحد غناء (المقام الحمندوشي) الذي ألفه ولحنه هو كما كان يقول بفخر واعتزاز .

كان زملائي الطلاب يكثرون من ذكر حمندوش هذا وبعضهم يتندر ويضحك وآخرون كانوا يبدون ملاحظات لم أكن لأكترث بها أول الامر الا أنها بمرور الايام كانت تؤثر على مجرى تفكيري وتترك فيه انفعالات شديدة . واذكر ان احد الطلاب اقترح على حمندوش مرة ان يغني أغنية مشهورة في الجنوب وهي (هلي يا ظلام هلي) واذا به ينقلب الى وحش هائج وكاد ان يخنق الطالب الذي امتقع وجهه واخذ يستغيث ، وقد اخبرنا الاستاذ فيما بعد أن حمندوش هذا قتل أمه عن غير قصد فقد كان بينهما تعارض في زواجه من فتاة يحبها ولم يتبين الحقيقة حتى اليوم فقد قتل عقله وعواطفه مع أمه ولم يبق منه غير مجنون : مجنون لا أكثر .

ولم يكن حمندوش وحده مثار اهتمام الطلاب بل المرضى الذين كنا نراهم أشباه عراة في الشتاء القارس حين يمرحون وحين يحزنون . أما طعامهم فكان نوعاً خاصاً عجيباً لقد رأيت أحدهم مرة يحمل صفيحة قذرة فيها ماء أسود وظننته ينظف (دورة الماء) واستفسرت مستغرباً من أحد الزملاء عن ذلك فأجابني :

ـ الشاي . . . . ماذا تظنه ؟

وأجبته والدهشة بادية على وجهي :

ـ صحيح ؟ هذا هو الشاي الذي يشربونه ؟ والذي سمعت عنه ؟

ـ أتعجب ؟ انهم مسوخ . . . . رغم انهم كما ترى في المستشفى .

ومع ان أحد لم يكن يجهل أن حياة المجنون لا قيمة لها وهي بهذا الشكل فقد كان لها قيمة عندهم هم على الأقل .. ولن أنسى موت حمندوش ، فقد سمعتهم يصرخون ويبكون يوم مات حمندوش وحمل الى غرفة التشريح بالكلية الطبية وكانت الرطوبة سبب موته .

ولم أكن وحدي قد تألمت يومذاك لموت ذلك الانسان بل كنت ألحظ التأثر في وجوه أكثر الزملاء أيضاً ؛ وهم يرددون « طبعاً يموت ما دام يعيش هكذا » وغادرت الكلية واحساس عنيف بالألم ينهش وجداني ، كنت أسير مطرقاً وأستعيد الماضي

القريب جداً لذلك الانسان البائس الذي مات يوم ماتت أمه ولكن وجوده لم يمت الا اليوم كنت أسير وأتطلع الى سور المستشفى العالي القديم الذي يبعث الأسى أكثر من أى شيء لمن يعرف ما وراءه من الحقيقة .

وكنت قد نسيت أحد كتبي فى الكلية فعدت لجلبه واذا بي ومديحة وجهاً لوجه ؛ أنا الذي كنت أتهرب منها وأتعذب ، سألتني :

ـ ها محمود رجعت ؟

ـ نسيت كتابي .

وحين عدت بالكتاب رأيتها تتباطأ في مشيتها وأحسست بالحرج والرغبة في الهزيمة تداعب أفكاري الحمقاء ولكني مشيت كمن يمشي لمحكمة وما كدنا نمشي خطوات حتى سألتني :

ـ أنسيت الجريدة أيضاً ؟

واجبتها بلهجة تمثيلية أتقنتها كأبرع ممثل :

ـ أوه . . . . اي والله لكنني تعبت ولن اعود مرة أخرى .

ـ هل قرأتها ؟

ـ لا ليس لدي الوقت الكافي . . وعلى كل حال سأشتري غيرها .

ـ لكن لماذا لا تجلبها . . ؟ انها على بعد بضع خطوات .

لا . . سأشتري غيرها . . .

وتعمدت بنفس البراعة التمثيلية أن أغير موضوع الحديث فسألتها :

ـ أرأيت كيف مات المسكين حمندوش ؟

ـ الحقيقة أني تألمت كثيراً . . . تصور أنهم يموتون بالجملة وبشكل فظيع .

ـ ولكن لماذا لا تعالج الحكومة وضعهم هذا ؟

ـ أتتعجب لهذا ؟ المسألة معقدة ولها جذور عميقة .

وفي موقف السيارات أخبرني أن في الجريدة اعلاناً عن كتاب صدر حديثاً وأبدت اعجابها به لأنها سبق وقرأت (طبعته الاولى) .

وذهبت الى البيت ومعي الكتاب المعلن عنه بعد ان ابتعته من سوق السراي .

• • •

وفي العطلة الصيفية بعد أن فزت بدرجات ممتازة ذهبت الى الديوانية وفي حقيبتي قصاصات كثيرة من الجرائد وثلاثة كتب كنت أعتز بها أكثر من نجاحي وكان شغلي الشاغل مطالعتها طيلة مدة إقامتي عند أهلي أما أبي فقد خفف من غلوائه في التهجم علي ورغم انه لم يكلمني بلهجة لينة ولم أره منشرحاً الا انه كف عن اللهجة القاسية والاسلوب البشع في معاملتي وكان يسألني دائماً ماذا تقرأ ؟ فاجيبه (دروس الصف الثاني) ولم تنكشف حيلتي الا يوم زارنا ابن خالتي الضابط ولمح كتاباً بيدي ففغر فاه واتسعت عيناه ثم سألني :

ـ من أين لك هذا الكتاب ؟

ـ أشتريته من السوق .. لماذا ..

ـ ولماذا تقرأه ؟

ـ انه كتاب جديد مفيد .. فيه أشياء كثيرة ما كنت أعرفها .

لـكن من أخبرك عنه ؟

وتدافع القلق الى نفسي من نظراته التي تنضح لوماً ولم أخبره عن الجريدة بل اقتضبت الجواب هكذا :

ـ لم يخبرني أحد ؛ وجدته في السوق فاشتريته .

وكان يوماً اسود ذلك الذي أحرق فيه أبي الكتب الثلاثة وطردني من البيت وهو يرتعد

ـ الذنب مو ذنبك .. الذنب ذنبي .. ذنب عمك اللي دللك يا إبن الكلب . اطلع .. اطلع من بيتي ..... كافر ..... نجس .....

....

....

....

كنت أتمنى لو ان ابن خالتي كان حاضراً لأقول له شيئاً ما ..... لاسأله مثلاً : ما شأنك أنت بي بعد أن لم أتجرأ على اجابة ابي بغير جمع ملابسي وحاجاتي والعودة الى بغداد من حيث أتيت .

كان أبي يرسل لي دينارين او ثلاثة كل شهرين أو أكثر ولم أكن بحاجة إليها فقد كان عمي يكفيني من هذه الناحية وكان ظني حسناً بأبي لولا أن علمت بعد ذهابي الى هناك بالحقيقة ومنه بالذات إذ انذرني بقطع مساعدته ! ومع ذلك فما آلمني شيء منه مثل حرق الكتب الأولى التي قرأتها ، تلك التي رسمت في ذهني معالم الحقيقة . ولم تكن إقامتي عند أهلي لتزيد على شهر واحد وفي تلك الايام القليلة كنت أقضي بعض الوقت مع زكي الذي كان يبدو مشغولاً دائماً ومستعجلاً . كان يذهب الى بغداد كل يوم خميس . وفي الأوقات التي كان يتغيب بها كنت ألتقي ببعض اصدقاء الطفولة والمدرسة والغريب اني لم أعرف ان كثيرين منهم يدرسون او يعملون في بغداد الا وقتذاك ، فقد مرت شهور السنة الدراسية

الاولى ولا أذكر اني ذهبت الى السينما اكثر من ثلاث او اربع مرات وكان الطريق بين الكلية وبيت عمي هو سبيلي الوحيد لسعادتي واحلامي . وبعد الايام الاولى كانت معرفتي بمديحة واحساسات الحب الساذج تكاد تكون الحافز الوحيدلرواحي ومجيئي كل يوم رغم القلق والضجر . ولم أحضر الحفلات الكثيرة الـــتي كانت تقام في الكليات الأخرى إذ أنني صرت أبتعد أكثر فأكثر عن كل حفلة او اجتماع كلما تذكرت لحظات الحرج الذي تولاني في حفلة التعارف يوم تركت الشريط الاخضر عـــلى صدري بعد الانتهاء من الاكل ولو لا ذلك لكنت تعرفت على آخرين من أبناء بلدتي في بغداد على الأقل .

ويوم عدت الى بغداد كنت أستعجل أيام تشرين . . وأبتداء الدراسة لارى تلك الآنسة الحبيبة الى قلبي والتي لا تفارق ابتسامتها مخيلتي ولا يزال صوتها العذب يتردد في اعماقي كنغم هادىء جميل . . . مديحة . . . التي عدت أحس بحاجتي اليها . لا ادري لماذا . . . حتى غزل لي الوهم فكرة أن اخبرها بما صنع أبي .

وفي بيت عمي كنت أحتال كثيراً في اخفاء الكتب التي اشتريتها مرة أخرى ومنهما اربعة أخرى كان في غلاف كل منها اسم الكتاب الاخر كأنما يتمم بعضها بعضاً كقصة في عدة اجزاء متعددة .

وكان نجاحي قد جعل من عمي انساناً عكس ما توقعته . كنت اتوقع بعد أن تصله رسالة من أبي أن يغير موقفه مني ولكن العكس هو الذي حدث ولقد تبينت فيما بعد أن طريقته في معالجة ما يريد من المسائل من نوع آخر غير التي اعتادها أبي فقد كان يقرأ في اوقات فراغه بعض الكتب الدينية والتاريخية ويحتفظ ببعضها في محل عمله والبعض الآخر في حجرته الخاصة في البيت وبعد ان بدا له أني أصر على قراءة الكتب التي لم يكن يرغب في ان يراها عندي أخذ يناقشني ..... وكان يفحمني بالحجج والبراهين الكثيرة التي يستقيها من الاحاديث النبوية واحياناً من الايات القرآنية ويستعين بالحكم والامثال . .

ولكن رغم كل ذلك ورغم حججه وبراهينه وتنازلي المستمر له عن اقوالي واعتراضاتي أمام الاجهاد الذي كان يبدو عليه وهو يكلمني لم أفكر في ان ألبي طلبه الذي كان يختفي خلف كل كلمة يتفوه بها وهو أن لا أقرأ غير دروسي ٠

وفي آب من ذلك الصيف وكانت الشمس لاهبة والهواء لافحاً والنهر لا يخلو من عشرات السابحين من الاطفال أمام « الجراديغ » القليلة المنصوبة على الشاطيء الرملي بمحاذاة الماء وبين زوارق الصيد والزوارق البخارية الراسية ٠ وكان بعض الشباب قد نصبوا « جرداغاً » على الشاطيء وأمام بيت عمي تماماً ٠ وكنت اتخذ لي كرسياً على السدة عصر كل يوم لامتع روحي بمشاهدة العابهم الرياضية التي لا تخلو من دلالة على القوة والنبوغ رغم أساليبها الساذجة ٠ ويوماً بعد يوم أخذ بعضهم يحييني حين يمر بي نازلاً الى الجرداغ قبيل الغروب ٠ وسمعتهم مرة يتذمرون من الصباح النفطي « لوكس » الذي يستضيئون به فنزلت اليهم وعرضت عليهم أن يمدوا سلكاً الى البيت فشكروني كثيراً وبعد قليل كان المصباح الكهربائي يضيء الجرداغ وتمتد خيوطه الى صفحة الماء المنساب عذباً رقراقاً ٠ وشرعت صداقتي بهم تتوطد فبدأت اشاركهم في السباحة والاكل حيث أنهم في كل ليلة يشوون سمكة بطريقة «الزكف» على أن يدفع كل منهم حصته من ثمنها ٠ كانو اربعة ، جاسم الرياضي ذو الجسم الضخم والعضلات المفتوله والذي ينكت دائماً ولكن على نفسه فيضحك الجميع منه ، وعباس الصامت الذي كان صمته يوحي لي أول الأمر بأنه يلازمه لسبب محترم ولكن تبين لي فيما بعد أن البلادة التي يتصف بها هي السبب وهي موضع سخرية جاسم دائماً ٠ أما الثالث وهو «طالب» فكانت مهمته الغناء ٠ فكان صوته وهو يغني أجمل بكثير مما أسمع في الأذاعة وكان لديهم زورق خشبي صغير يبعدون به عن الشاطيء وعند ذلك يشرع طالب بالغناء وكان يجيد حفظ الاغاني الجنوبية التي تعجبني الى حد كبير ٠ أما وهاب وهو رابعهم فقد كان انساناً آخر يختلف عنهم تماماً في تفكيره وأقواله رغم أنه يشاركهم الأكل

والغناء والسباحة والتنكيت والضحك الا اني شعرت أنهم يحترمونه كلما تطرق الحديث الى القضايا السياسية .

وما كاد الاسبوع الاول يمضي على هذه الصداقة حتى اصبحت واحداً منهم فقد كانت عاداتهم شبيهة بعادات أهل الجنوب ولم أجد صعوبة في سلوكي معهم كما لم اتكلف أو اتصنع تصرفاتي معهم ولم أكن أول الأمر اعرف ماذا يعملون نهاراً لكن سرعان ما يكشف الانسان عن سخطه اذا لم يكن راضياً عن عمله . فعين المظلوم تنام ولكن عين الله لا تنام كما كان جاسم يقول .

كان جاسم مستخدماً في دائرة حكومية وراتبه ضئيل وذلك هو السبب في شكواه باستمرار او تمرده الذي كان ينزلق على لسانه سباباً وشتائم على المدير الذي لا يرقيه لانه « اي جاسم » شيعي المذهب بينما المدير سني . وكان يمثل بجسمه الضخم بعض حركات المدير وقد يبرع في تمثيله بسبب الالم الذي كان يعانيه والذي لم يفلح في إخفائه بالنكات والضحك .

أما عباس فكان عاملاً في احدى المطابع وكان قد مضى عليه ثلاث سنين واذا بالزيادة التي لحقته ليست سوى نصف دينار ولكنه لم يكن يتكلم عنها الا قليلاً جداً اذا استفزه جاسم مثلاً بقوله « نايم يا شليف الصوف » فيتشاتمان قليلاً ويتعاتبان بعدها فيقول عباس .

- يا جماعة بالله عليكم يريدني انحبس ... شايفين ؟

ويجيبه جاسم :

- انت مخنث .. العمال كل يوم يطلعون مظاهرات

وعندئذ يحنق عباس فيجيبه .

- يمكن انت وياهم ها ؟ آني مخنث !!؟ انت المخنث !.. انت لو بيك خير سموك خيرالله .

ـ أنت تعرف لغوة بس ٠٠ أنت أحسن مني ؟ لا ٠٠ يعني معاشك أكثر مني ؟ لا ٠

ـ لكن على الاقل أني كفرت المدير بالعرايض والمطاليب .

ـ العرايض ما تفيد كل شيء بالواسطات .

وعند ذاك يشرع طالب بالغناء لينهي المسألة كي لا تتطور الى ما لا تحمد عقباه٠
وفي احد الليالي تبرع طالب بثمن السمكة وكل ما لحقها من توابع بعد ان تم نقله الى بغداد بعد سنتين قضاها في العمارة منذ اول توظيفة في مديرية النفوس .

وكنا في الزورق بعيدين عن الشاطيء وكدنا نقترب من الشاطيء الآخر حيث النخيل الممتد مع النهر وكان وراءه غابة مخيفة : وانتهى دور الغناء وأخذنا نتحدث مع بعضنا واذا بجاسم يقول لوهاب :

ـ راح تنظم قصيدة لطالب ؟٠٠

وضحك وهاب قائلاً :

ـ لا.... الا اذا ! لكن من يحزر .

وأجابه طالب تواً :

- الا اذا رجعت لك الكتاب ٠٠ تمام ؟

ـ لا٠٠٠

وتابع جاسم :

ـ الا بسمكة .

ـ لا

واذا بعباس يخرج من صمته قائلاً :

ـ الا اذا تزوج ....

وضج الجميع بالضحك فلم يتوقع حتى وهاب نفسه ان يحزر عباس المسألة فاستغرق في الضحك قائلا :

ـ والله يا عباس انت تستحق قصيدة .

ولقد وجدت كتباً كثيرة في مكتبته وسألته عن الكتاب الذي اخبرتني عنه مديحة والذي احرقه ابي واشتريت نسخة اخرى منه فأجابني :ـ

ـ انه من الكتب الممنوعة الا انني احتفظ بنسخة منه رغم انني معرض للتحري .

وسألته :ـ

ـ للتحري عن أي شيء ؟

ـ عن كتب ممنوعة مثل هذ الكتاب وغيره .. لماذا ؟

ـ لكنني اشتريته من السوق في الصيف وهو لا يزال عندى .

ـ صحيح وهو لا يزال يباع الان في السوق ولكن كي يشتريه واحد ما ، مثلك مثلا ثم يقدم للمحاكمة بتهمة حيازته عليه .. لا تبقه عندك اعطنيه .

ثم اخذ يتحدث عن امور لم تكن لتخطر ببالي أو اعرف عنها شيئا ، وبمرور الايام كان تفكيري قد وجد ملجأ في ظل ذلك الشعور الذي كان ينمو بسرعة ، كان وهاب في كل تصرفاته الخاصة انساناً عجيباً لم ار مثله قبل ذلك الحين ، فبمثل البساطة التي تم تعارفنا بها كان يعاملني حتى كأنه يعرفني منذ زمن بعيد .

....

أي زمن هذا الذي نعيش فيه ؟ واية أعباء هذه التي تكاد تقصم ظهورنا .. نحن وحدنا ابناء هذا الجيل ؟

ان الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، هو الجوهر ألذي تكمن فيه الحقيقة ، ولكن عظمته لا تظهر الا بظهور الحقيقة ، حقيقته هو ، الحقيقة التي تقول ان الانسان اثمن ما على هذا الكوكب من الموجودات ولعله من هنا يعاني دائما الالم لان هناك من يحاول مسخه والتجارب التي نعيشها تبرهن على ماهيتنا ؟ ان مرارة التجربة لاتعني شيئا في نظر التاريخ الحقيقي للانسان اذا لم تكن تلك التجربة قد هيأت مصباحاً في طريق الحياة وهذا هو الزمن الذي نعيش فيه ، ليست اعباؤه في اننا نريد كل شيء أو اننا نحب فنخيب فنيأس أو نجوع فنتمرد ونثور .. لا ! ليس في ذلك انما في اننا نحن ابناء هذا الجيل ما ان نكاد

تمضي خطوة في طريقنا حتى نجد انفسنا في مفترق طرق كثيرة وسؤال ينتصب امام بصائرنا بشكل مفزع إلى أين ؟ ان متاعبنا في هذا السؤال .. وهنيئا لمن يجيب عنه بثقة فالذين يتخبطون هم وحدهم العاجزون عن الاجابة .

ولقد كان على ابواب السنة الثانية من سني دراستي في الكلية نفس ذلك السؤال :ـ (الى أين ؟) وكان نوع من الغباء والرعب يجرني بعيداً عن مجرد التفكير بجواب ما ، ولكن مديحة كانت تقاوم أو ان ـ حي .. عواطفي .. هى التي كانت تحاول الوقوف بوجه التردد والخوف .. لتقول شيئا ما للتاريخ فالايام المضيئة هي التي يجد الانسان فى هداها طمأنينته .. وهي تاريخه ايضاً .. سيما اذا ارتبطت تلك الطمأنينة بالثقة بالنفس ومعرفة الحق والعمل لأجل ان تكون حياته افضل مما هي عليه وعلمت ان زكى موقوف وسيقدم للمحاكمة قريباً وكان عمي يردد على مسمعي كل يوم صباحاً ومساء :ـ

ـ ابني استر علي .. الله يستر عليك .. اخاف عليك

وأجبته مندهشاً :ـ

ـ لكن ماذا عملت يا عمي؟

ـ انت تخفي علي . أنا ادري .. لكن الا ترى ؟ الا تسمع ؟ كل يوم يأخذون واحد ويفتشون البيوت ، ومالك ولهذه المسائل ، مالك وللسياسة ؟ اعوذ بالله من الشيطان ، اللهم استر علينا بسترك الجميل .

وكنت اذهب للكلية وصدى اقواله تتجاوب في راسي فتمزق شجاعتي وجرأتي التى اجمعها فى وحدتي لاقول لمديحة شيئاً ما . وفي صباح يوم جاءت مديحة منشرحة غاية الانشراح وفاجأتني بقولها :ـ

ـ عندي شيء لك احزر ما هو ؟

وكادت الدهشة والفرح يطيران لي فقلت مبهوتا :ـ

ـ خير انشاء الله ؟

ـ احزر ما هو ؟

ينفذ الى الجسم رغم ملابس الصوف اشترى هو بدلة مستعملة بسعر زهيد جداً واكتفى بأن خسر عليها ربع دينار عند المكوى لازالة ما عليها من بقع .

في حين دأب يشتري الكتب رغم فداحة أثمانها ويعيرها لهذا وذاك لكل من يرغب لم يكن أحد يعلم أنه يحمل فكرة نبيلة الى هذا الحد ، كان يقول لي دائماً ـ

« انت لا تدري .... أنت جديد هنا الا انك مواطن مثلي تماماً ولكن أتعلم ان ليس في المحلة كلها مكتبة واحدة ؟ توجد مواهب وقابليات في كل مكان ولكن المدارس لا لا تعني بشيء من ذلك ابداً . هذا من واجب الواعين يجب أن توجد مكتبة ونادي وجمعية أدبية وجمعية تعاونية يجب ان تصل الجرائد الى هنا تصور ان احدا من كل الناس هنا لا يخطر بباله ان يقرأ جريدة عدا بعض الموظفين من ابنائهم ، هذه الناحية بحاجة الى كل ما يتطلبه الانسان لكي لايفقد انسانيته لكي لا يمسخ .. ولكن .. من يسمع . »

وهاب النحيل الجسم المتعب العينين دائما من كثرة القراءة كان يتكلم وكأنه يحمل هموم الدنيا كلها على صدره ولذلك زادت طيبته ونبله فهو سريع الغضب سريع الرضا ويحاول تجاهل همومه والتفكير بمشاكل الاخرين والامهم حتي اصحابه الذين توطدت صلتي بأكثرهم كانوا يبدون ملاحظات قاسية عنه كان يقول له احدهم :ـ

وهاب ، تريد تصير عالم ؟ دائما قراءة .. مطالعة . كتابة . والنتيجة . ماذا تريد ؟
أو يقول آخر له :ـ

ـ انت تتعب نفسك (من غير داعي) . لمن ؟ على من ؟
وقد التفت الي ذات مرة وسألني بمرارة :ـ

ـ أترى ؟ كل هذا جهل .. هذه انانية سببها الجهل .. هذا مرض ، صحيح ؟

كنت بوصفى (غريبا) لا اجرأ على الرد على احد من اولئك بلفظة نابية او لهجة لاسية ولكن الواقع هو ان مودتي لوهاب كانت تنمو بمرور تلك الايام حتي اكتسبت ثقته وهو كذلك بالنسبة لي . وقد وجدت طريقي الى قهوة المحلة لأقضي فيها بعض الوقت وكنت الحظ ان عمى بدأ يضيق بتصرفي ذلك ولم يكتم شعوره ذات يوم اذ خاطبني :ـ

ـ القهوة لاتصلح لك .. انت صغير يا ابني .. انت تلميذ ،

ـ لكن يا عمي لي اصدقاء ياتون الى هناك وانا لا اتأخر ، هل تأخرت مرة ؟

ـ لكن ألا ترى ، لقد شاب رأسي وانا لم آجلس في القهوة ! ماذا فيها ؟ طاولي دومنة .. طاق طيق ولغوة الراديو . اتفيد ؟

ومرة اخرى حين دعوت وهاب الى البيت قال لي وهو يفرك لحيته براحته ، مبدياً عدم ارتياحه :ـ

ـ محمود . هذا الولد وهاب لا يعجبني .. أني سامع عنه اشياء كثيرة .

ـ ما ذا يا عمي ؟

ـ يقرأ الجرائد في القهوة ويتدخل بالسياسة وانا اوصيك ان تتجنب ذلك ،

ـ والله يا عمي انا لم اعرف في هذه المحلة شاباً مثله وهو صديقي ،

ـ استغفر الله ربي واعوذ به من الشيطان ، ادري صديقك ادري . لكنه يضرك ، يضرك يابني ، يضرك اكثر من أي عدو ،

لكن هيهات . لقد حرت في طريقي ، لم ابال ولم اكترث ، فقد صرت اجد ان في اقوال عمي شبهاً كبيراً مما كنت اسمعه من ابي عن زكي صديقي .

كنت اذهب مع وهاب الى بيته او الى المكتبة العـــامة والسينما احياناً حتى صارت الصراحة بيننا شيئاً عادياً ولكن شيئاً واحداً لم اطلعه عليه هو علاقتي بمديحة ، كنت اشعر بالخجل كلما هممت بمفاتحته بهذه المسألة وكان لرأيه الذي كثيراً ما يصرح به عن الحب اثر في ان لا ادعه يعرف شيئاً ما عن هذه العلاقة ، لقد كان يتندر كثيراً بالحب الذي كان يصفه بضياع الوقت والعبث والميوعة والاستهتار احياناً والتخنث احياناً اخرى . وقد اطلعني مرة على قصائده وقرأتها وكانت تعجبني رغم التعليقات القاسية التي كان يضيفها هو فيما كنت اقرأ كان يقول « كم كنت سخيفاً » و « من حسن حظي اني لم انشر شيئاً من هذا الشعر بوقته » و « الذي لايعترف بخطأه ويتلافاه احمق كبير » وهكذا كان يؤكد على انه لم يعـــد يؤمن بالفكرة السخيفة التي كانت تكمن خلف كل كلمة من اشعاره ، رغم احتفاظه بها .

وسألتهم أنا بدوري :

ـ إذن وهاب شاعر .... عظيم عظيم

وأجاب وهاب بتواضع

ـ يا شاعر يا تمر لا تصدقهم ، كذب في كذب

ولكن جاسم عاد فأكد :

ـ لا والله انه شاعر واذا لم تصدق فسآتي لك بالجريدة لتقرأ قصيدته .

قلت أي جريدة

وصمت قليلاً كمن نسي الاسم فأجاب طالب :

أظن بالعالم العربي

واعترض جاسم قائلاً :

ـ لا .... لا .... أظن بالوطن او .... لا اتذكر لعن الله الشيطان .

فقال وهاب :

ـ بالاهالي

واجتاحتني موجة من الفرح فغمرت كل احساساتي حتى كدت أقفز من مكاني واصافحه ثم تابع :

ـ لكن كان ذلك منذ زمن .... ليس الان .... توظفنا وانتهت المسالة .

ـ يعني تركت الشعر ؟

ـ لم أترك الشعر ، انما نظم الشعر ، وقتي ضيق .

والتفت إلي طالب وكأنه يتعمد تغيير الموضوع قائلاً :

ـ طالب الله يخليك أغنية ارجوك ارجوك يا سعد ارجوك .

وعاد بنا الزورق يتهادى وكنت سعيداً تلك الليلة وشعرت بأن الحياة لا قيمة لها من غير أصدقاء طيبين كهؤلاء رغم اني لم أقض وإياهم الا ساعات قليلة .

ورفعنا اعواد «الجرداغ» بانتهاء الصيف ولكن صداقتنا لم تنته ، كان وهاب هو اول

صديق كسبته في بيئتي الجديدة فقد وجدت شبهاً كبيراً بينه وبين زكي لو لا أنــــه ينفعل انفعالات عجيبة أحياناً سيما اذا احتدم النقاش السياسي بينهم حتى يبدو وكأنه شخص آخر الا انني كنت احترمه كثيراً فقد عرفت أنه يحرص على اقتناء الكتب الجديدة المفيدة وأن الكثيرين من أبناء المحلة يستعيرونها منه مع أن بينهم من هو أقدر منه على شرائها فوهاب لم يكن غير موظف بسيط مغمور وكان يقول عن نفسه « السبب عميق في كوني مغموراً »

وحين ابتدأ الدوام في الكلية كنا نذهب معاً كل يوم الى بغداد ، وهاب الى عمله وأنا الى الكلية · كان يشير لي بيده نحو بناية الدائرة التي يعمل فيها قائلاً ·

ـ انظر .... أترى ؟ أنا حبيس تلك القلعة

وكان دائماً يردد الموظف ؟ الموظف مسكين .... الوظيفة لا تبقي على شيء فيه انها تمتص حياته وتلقيه كما تعصر اليد القوية ليمونة او رمانة وتلقى بها الى القمامة ومع ذلك فالشباب يفرون من الموت الى الموت ... مع الأسف .... الشباب أجل الشباب ·

٦

كانت صداقتي مع وهاب اول الأمر لا تتعدى الأحاديث العادية وفي أكثر الأحيان يكون هو المتكلم أما أنا فأصغي اليه · كان يحدثني كثيراً عن وظيفته وما يقاسي فيها من ارهاق وتأثير ذلك في صحته كما يشكو من تأثير المحسوبيات والمنسوبيات التي هي السبب في تخلفه عن زملائه الذين ارتفعت رواتبهم الى أرقام عجيبة وكنت أتألم حين يعرض علي تلك السطور من حياته · كان اديباً يجيد انتقاء الالفاظ ويضع فيها التعبير الذي يريد وكان ساخراً أيضاً ولعل مرارة الحياة التي عانى وبلاتها هي السبب في سخريته وميله نحو النكتة التي طالما غلفت أكثر تعابيره ·

وحين عرف رغبتي في المطالعة وحيرتي في اخفاء الكتب عــرض علي ألا أشتريها وأظهر لي استعداده لتزويدي بأي كتاب أرغب · فكنت أستعير منه الكتاب تلو الآخر ·

كان انساناً من طراز خاص ، لا يعنيه مظهره في شيء ففي الشتاء حيث الهواء البارد

ـ بطاقة حفلة ؟

ـ لا !.

ـ كتاب جديد ؟

ـ خبر عن زكى .

ـ لا .. ؟

وازاء الحيرة التي ارتسمت على قسماتي اخرجت من جيبها قطعة من الشوكولاته واعطتنيها قائلة :ـ

ـ خذ .. خرج شوكت من السجن ، وهذه بالمناسبة .

ـ تهاني الحارة ! متى ؟

ـ أمس !

ثم صمتت قليلا وتابعت :ـ انت لاتعرفه ٠ لكن سيتم ذلك فى المستقبل

ـ على كل حال ارجو ان تهنئيه بالنيابة عنى .

ـ ولكن لما ذا لا تأتي عندنا ؟ تعال سأعرفكما ببعضكما !

ـ شكراً ! لكن ألم تسمعي خبراً منه عن زكى ؟

ـ لا لكن ربما تعاد محاكمته فى بغداد .. هنا !.

وزفرت زفرة خفيفة ثم تابعت :

أترى يجي واحد ويروح آخر

قالت ذلك وهي تبتسم ولكني فهمت جيدا أي الم كان يغلى فى نفسها .. ووجدتني أقول بكل بساطة :ـ

ـ وماذا يهم ؟ السجن للرجال !! (قلت ذلك لان السبب الذي سجن من اجله زكى قد وضح لي) ولكنها اعترضت وكأنها تضايقت من قولي فأجابتني :ـ

ـ يعني للرجال فقط ؟

ـ لا .. لا .. ليس هذا قصدي .. انما اقصد ان الذي يطلب الحق لايهمه

السجن وغيره .... ولكن ماذا ظننت ؟

ـ حسبت أنك تقصد ان السجن للرجال فقط بينما الكثيرات من صديقاتي في السجن....

ـ كيف أعني هذا ؟ مستحيل .... انه مثل يقال ....

وابتسمت ففهمت انها ادركت قصدي من الأول ولكنها تعمدت الاعتراض وعادت فسألتني :

ـ اذن ستأتي لترى اخي

ـ طبعاً لكني لا أعرف مكان البيت

ـ سأدلك الان

ورسمت على غلاف كتاب كان بيدي مخططاً لشارع السعدون وبعض الشوارع الفرعية ووضعت اشارة حيث يوجد البيت .

أأقول انها لم تحبني بعد ان دعتني لرؤية أخيها . بعد ان قدمت لي قطعة الحلوى ، او بعد ان اختصتني بفرحتها .... أبعد كل ذلك لا يجوز لي ان اصارحها ؟.... ان اطلق قلبي من الأسر ، قلبي الحبيس بين جدران الحياء والخجل والخوف .... ولماذا لا أستطيع ان أتصور قسماتها بعد ان عرفت اني احبها ايمكن ان تزعل .... بالعكس انها ليست غير أوهام أو شكوك .. انها تحبني ومضيت لارى أخاها . . ولاراها هي.. وكانت الاسئلة الكثيرة تعصر دماغي وتشتت النشوة التي كنت أحسها . لم اكن أعرف أحداً من أهلها أبداً ومع هذا فهاأنذا ذاهب لارى اخاها الذي لا أعرفه ولا يعرفني ولم يكن ذلك وحده يقلقني بل انالخواطر المضطربة كانت ترسم الواناً من المواقف المحرجة . ماذا لو لم أجدها؟ ماذا سأعمل ؟ وسرت في الشارع المرسوم على غلاف الكتاب وأنا اتطلع الى الابواب بحيرة وقلق ولم ألحظ شيئاً ما يدل على فرح وابتهاج كما توقعت وفجأة سمعتها تناديني والتفت فاذا بي خلفت البيت ورائي خطوات وتقدمتني وما كدت أجتاز ممر الحديقة الصغيرة المحيطة بالبيت حتى اقبل شاب في عنفوان الشباب وعارفتنا مديحة .. أخي شوكت ... زميلي محمود ورحب بي كأعز صديق ثم قادني الى الغرفة التي كانت تضم اكثر من عشرين

شاباً وقدمني لهم بسرعة وبساطة : اقدم لكم الاخ محمود ..

ومضت دقائق وانا في شبه حلم من الذهول .. وكنت أمسح جبيني بين فترة وأخرى . رغم الضحكات المرحة والنكات الكثيرة التي كان شوكت يلطف الجو بها ، فلم اجد الشجاعة على غير الابتسام فقط .. ومضى البعض ولكني لم أبرح مكاني ، كنت اتململ في مقعدي مضطرباً حائراً لا أدري كيف سأنجو بنفسي من هذه الورطة ، التي لا أعلم لماذا ألقيت نفسي فيها .

كان بهجت حاضرا ولحظته صامتاً أكثر الوقت وربما افتعل الابتسامة والضحكة السمجة الممطوطة في حين كان شوكت يتكلم بصوت هادىء رزين .. لقد تركتنا مديحة معاً ومضت الى صديقاتها كما قالت ؛ اسلمتني الى ما لم أكن اهلاً لمواجهته من المواقف الحرجة ولكن هكذا كان .. كان مظهري يوحي بغير حقيقتي ولكن عواطفي الحمقاء كانت تدفعني الى اللهب فتحترق هي ايضاً كالفراشة . قد ينسى الانسان اشياء كثيرة مهمة في حياته ولكن أينسى مثلي احاديث سجين سياسي ؛ سمعه لأول مرة في حياته يتحدث عن الوظيفة والخيانـــة والشعب وال.. وال..

....

....

....

....

....

وغادرت البيت بعد ان اوصلني شوكت الى الباب وكان معي شاب آخر وجمعتنا تلك الصدفة في ذلك اليوم وأفهمني هو ايضاً شيئاً آخر لم اكن اعـرفه قال لي ونحن نقطع

الطريق القصير بين البيت والطريق العام :

ـ تصور شجاعته !! فصلوه من الكلية ومن الوظيفة وهو هو .. لم يتزحزح عن عقيدته أبداً .

كنت اتمنى أن استفسر من شوكت عن زكي اذ سمعت انه حكم عليه بعد محاكمة سريعة ... لانني حين سألت مديحة عن مكانه أخبرتني بأنها لا تعرفه الا انني رحت ابحث عن وسيلة ما للاتصال به ثم بعائلته .

ويالها من ايام تلك التي كنت اتلهف الى معرفة أي شيء عن زكي كان الهم يضغط على عواطفي بعنف فأروح اسأل وأسأل حتى وجدت يوماً من نصحني أن اقلل من اسئلتي عنه لأن مصلحته هو ومصلحتي انا تدعو الى ذلك لكنني لم التفت ولم آبه بل كنت أتمنى ان ادخل السجن لأكون بجانبه وحين سمعت مديحة ذلك مني أجابتني مندهشة وبحدة :ـ

ـ محمود انت عاطفي ! ما ذا تقول ؟ ما معنى هذا التمني ... كل منا يجب ان يفكر بتخليصه من السجن بينما انت ؟ هه .. هذا غير صحيح .

ولكن الحوادث مضت على غير ما تمنى كلانا .. نعم رغم امنياتي وامانيها . لقد تأكدت حينذاك انني أتألم كثيراً لأجل زكي ، كما عرفت سمو الدوافع التي سجن بسببها صديقي القديم العزيز .

٧

لم يكن نشاط الطلاب السياسي ليقل شأناً من نشاطهم في المجالات الاخرى فقد كانت تقام حفلات موسيقية كثيرة في كليتنا تعزف فيها بعض قطع الموسيقى الكلاسيكية كما كان الطلاب يقومون برحلات كثيرة الى الضواحي او الى خارج العاصمة احياناً الى غير ذلك من الفعاليات التي كانت الفرصة متاحة لها حينذاك ولكنني لم اكن احضر او اشترك معهم الا نادراً .

لقد حضرت مرة احـــدى الحفلات الموسيقية ولا زلت حتى اليوم كلما سمعت

(بتهوفن) أستعيد تلك اللحظات التي كلما مرت بخاطري أحس بمرارة الخيبة واليأس تعفنان فكرة الحب في رأسي .

لم احضر تلك الحفلة الا لأرى مديحة فالواقع انني لم اكن أميل الى هذا النوع من الموسيقى . كنت أهتز طرباً اذا سمعت الحان الريف وغناءه أما ان أجلس صامتاً لأستمع لموسيقى لا تختلج لها عواطفي فهذا ما كان يدفعني الى السخرية من نفسي في اكثر الاحيان ومع ذلك فما دامت مديحة تحب هذه الموسيقى وتقول انها دليل على الذوق الراقي فلماذا لايكون ذوقي كذلك ؟.. وقد كان بهجت يشرف على تنظيم مثل تلك الحفلات هو وزميل له ايضاً لقد كان هذا الطالب ذكياً فكنت اسمع انه اول صفه دائماً كما كان لبقاً في حديثه ، مرحاً وظريفاً ، يقف بقامته الفارعة بجانب (الكرامفون) وسيماً ، انيقاً ، يشع من عينيه بريق الطمأنينة ومظهره يوحي بأنه واثق من نفسه ، كان ينظم بعض الحفلات خارج الكلية ايضاً ولكني لم احضر واحدة منها أما في الكلية فلم احضر سوى تلك المرة التي مقته بعدها حتى اكل الندم ذلك المقت بعد حين . وفي الحفلة كنت كغيري من الطلاب انظر واستمع الى تعليقاته اللطيفة عن القطعة الموسيقية وهو يتكلم بهدوء والابتسامة المتأدبة لا تفـارق وجهه ، ونظراته التي كانت تلتقي بعيوننا جميعاً غير انني كنت ارى وجهه لا ينفك يتحول الى حيث كانت تجلس مديحة بين دقيقة وأخرى ثم تتسع ابتسامته قليلا وبقل رمش عينيه ... وحولت اهتمامي الى نظراته والى ابتسامته والى حيث تجلس مديحة ولم اضطرب اول الامر فقد كانت احـدى الطالبات جالسة بجانبها وبشيء من البلاهة أحسنت الظن به وقلت في نفسي لعله يعني تلك التي بجانب مديحة فقد كانت جميلة ايضاً ولا تنفك ترمقه بنظرات خاصة واخذت الحقه بنظراتي المتفحصة حتى ألتقينا بنظرة سريعة خاطفة لم يفهم منها شيئاً ومرة اخرى ابتسم فأحسست بالتقزز منه ، كانت عيناي تسألانه ما لك تنظر اليها هكذا ؟. ومرة اخرى ابتسم ثم ضحك ضحكة خفيفة وضحكت مديحة وبهيجة والطالبة الاخرى وبعض الطلبة القريبين منه ولم افهم لماذا ... بل لحظت البعض يلتفتون الى حيث نظر هو ثم ضحك ، وكان احد الشياطين بجانبي فهمس :ـ

ـ خفة دم اكثر من اللازم ، رأيك ؟

وكأنه ضرب على الوتر الذي اريد فأجبته :ـ

ـ صحيح لأنه ضحك بلا سبب ..

ـ لا .. السبب ؟ السبب خفة الدم يا أخي !! انظر

وشعرت بشيء من عدم الارتياح لجوابه لأني أحسست انه يعني مديحة ايضا بملاحظته ، وانتهت الحفلة وأخذ الطلاب يغادرون القــاعة وتباطأت متعمداً فاذا بهجت يقترب من مديحة ويكلمها ثم يضحكان معاً .. وأحسست في تلك اللحظة برغبة قوية في أن اشبعه ضرباً ولكماً . ولكن الصمت كثيراً مايطوي في مطاويه ضجيج العواطف الثائرة ..

وفي تلك اللحظة بدا لي انه عرفها يوم احببتها انا وانه أحبها يوم بدأت أغار عليها وكنت اتخبط لأنها هي لا تعرف اني احبها .. وكنت اشعر بشيء من الراحة كلما تذكرت أن هذا المنافس الذي صار بغيضاً الى نفسي لي الصف الرابع وانه سوف يبتعد عنها اكثر عند ما يتخرج واتخلص من هذا الكابوس الثقيل الا انني لم اطق صبراً بعد ان علمت بأن حفلة اخرى ستقام وستحضرها مديحة ايضا واخبرتها انني لن احضر فسألتني متعجبة :ـ لماذا ؟. وقلت في نفسي لماذا لا أقول الحقيقة .. لكن كيف .. وصمت ايضا ولم تعرف هي طبعاً ، وكذبت في بيان سبب اختلقته .

....

واقبلت بشائر الربيع وأخذ الطلاب يستعدون له ، كل يقترح مشروعاً ، وعلموا انني من (الكرادة) بعد ان اخبرتهم مديحة ذلك فسألني بعضهم :ـ

ـ هناك بساتين كثيرة رأيك ؟

ـ لكن لا اعرف أحد من اصحابها !

ـ لا تخاف يا أخي .. يعني راح نأكل الاشجار ؟ دبر لنا طريقة ، يعني بالعربية « فاوض واحد منهم » ..

وقال آخر :ـ

ـ يوم جمعة .. نروح من الصبح نرجع العصر ..

وعقبت مديحة :

ـ اي والله فكرة حلوة ..

ثم التفتت إلي وتابعت :ـ

ـ محمود إسمع الفواكه لم تنضج بعد ولن يمانع اصحاب البساتين كما اعتقد ، اتظن انهم يمانعون ؟.

ووعدت الجميع بتدبير المكان وعليهم ان يستعدوا

وفي اليوم الذي اتفقنا عليه كان وهاب صاحبي قد طلب اجازة بعد ان اخبرته بالمسألة ورجوته ان يحضر معي وحضر كذلك طالب ، طالب الذي كان يغني فيصفقون بحرارة ؛ لقد اعطاه احدهم بعض الأبيات (الابوذية) فغناها وكانت اياتاً وطنية حماسية وان صدى ذلك التصفيق لا يزال يتجاوب في اعماقي . وكان فلاح البستان انساناً طيباً الى اقصى حد ، كان يردد دائماً :ـ

« تعالوا بوكت التفاح .. بوكت المشمش .. على العين والراس »

لقد ترك الرجل عمله ذلك اليوم ومهد لنا مكاناً تحت اشجار النارنج حيث وضعت الحقائب واكياس الاطعمة فكان الرجل لا ينفك يعيد :(آني خجلان منكم ما كو بالبستان شيء) ولكنهم كانوا يجيبونه شاكرين ممتنين .. وهم يقولون : « عمي اخلاقك كافية » «وجهك يكفي » الخ ..

كانوا اكثر من خمسين طالبا وبينهم بعض الطالبات ومديحة ايضا وكانت تعلق على كتفيها آلة تصوير وكان اكثرهم لا يعلم اني أنا نفسي لم ار هذه الطبيعة قبل اليوم حتى ظن بعضهم اني ابن صاحب البستان لفرط المجاملة التي كان يعاملني بها الرجل الطيب .

وانتشروا في ارجاء البستان الكبيرة وبأيديهم آلات التصوير وكانت الضحكات العالية تختلط بأغاريد البلابل وزقزقة العصافير .. وبين حين وآخر يستبد الفرح باحدهم فيرجو من طالب ان يغني ثم تنطلق قهقهات حرة قوية وتصفيق تذعر له الطيور فتصفق باجنحتها هي ايضا متنقلة بين اعالي الاشجار ، وما اكثر ما كان يلتقي كل جماعة باخرى فيما هم يتنقلون بين الاشجار وعلى حين غرة سمعت مديحة تفاجئني « حاضر ؟ » وهي توجه الكامرا نحوي فاستوقفتها لحظة واذا بطالب آخر يلتقط لنا ـ انا وهي ـ صورة وما أكثر ما ضحكت لتلك الصورة حين رأتها بعد حين وقد ظهرت بها وانا اسوي قميصي بينما هي تنظر نحو الكامرا الموجهة نحوي .

لم يحضر بهجت معهم ولم ادر ما السبب ولم احاول ان أســــالها فقد شعرت بارتيــــاح شديد لتغيبه ، كنت لا اريد حضوره ولكن لم يكن لدي وسيلة لذلك كنت اخشى ان يحضر فيعكر علي فرحتي ولكنه لم يأت وهكذا مر النهار وأنا سعيد : كان الضيوف يسالون ويستفسرون كثيرا ولكنني تركت لوهاب مهمة الاجابة على اسئلتهم الكثيرة فلم اكن لأعرف عن جغرافية هذه الأرض الا شيئا تافها بالنسبة لأسئلتهم المتلاحقة ؛ وقد يتبرع وهاب فشرح لهم حتى سبب تسمية هذه الارض بالكرادة وكيف ان هذه الارض كانت تسقى بواسطة (الدلاء) التي تسمى (الكرود) فسميت كذلك وحين قال احدهم انها «جنة يا اخي كيف ستكون بعد شهر .. جنة عدن » اجابه وهاب «اتدري .. لقد عرف الانكليز قبلنا هذا المكان .. وانتبهوا له » ، كانوا اربعة او خمسة وبينهم مديحة فسالته حينئذ :ـ

ـ « الانكليز ؟ » قال :ـ اي نعم ! كانت المس بل (*BELL*) سكرتيرة المندوب السامي في العراق تصطاف هنا ولاجلها وجد الطريق الذي جئتم منه بعد ان وسع فصار شارعا ؛ لقد استغلوا من اول الامر حتى طبيعتنا لمنفعتهم فلم يفتحوا شارعا ولا نصبوا جسرا الا عند اقتضاء مصالحهم ، كانوا يصطافون فقط ولكن بعد عشرين سنة نصبوا جسرا عائما وفتحوا شارعا هو الذي جئتم منه ورفعوا الجسر بانتهاء الحرب وبقي الشارع كما رأيتموه ترقص السيارات فوق الحفر الكثيرة فيه

وعادت مديحة فسألته والى أين يؤدي هذا الشارع؟ فأجابها الى النهاية ٠٠٠ الى «ألدورة» فالنهر يحيط بهذه الارض انها تشبه حذاء الفرس تماماً أو شبه جزيرة، قولوا ما تشاؤون ولكنها كما ترونها ٠٠٠ جنة ٠٠٠ لكنها مهملة ، والتقط بعضهم صورة فيما كان وهاب يتحدث ٠

وقبل موعد الغذاء جاءنا الرجل الطيب بقدر كبير من اللبن وفيه قطعة كبيرة من الزبدة ٠٠ أي إنسان هذا ؟ لقد كانت كل بساطة الفلاحين وسذاجتهم وكرمهم تتمثل فيه لقد سمعنا نتحدث وهو يمر بنا حاملا على رأسه قدر اللبن متجهاً نحو مكان الاطعمة تحت اشجار النارنج وتبعته لاشكره تاركاً وهاب يتحدث فقال لي الرجل : التلاميذ يحبون البساتين الله يحفظهم ٠ قلت اي والله يا عمي .. تدري بغداد مثل الحبس فأجابني : صدك ٠٠ صدك ٠٠

وبعد أن شكرته قال لي مستنكراً :

ـ زحمة ؟ لا عمي ٠ لا ٠٠ انتو اولادنا وحقكم علينا وهذا مكانكم ٠

وفيما هو يعود استوقفه احدهم راجياً . عمي من فضلك خليني آخذلك صورة ٠

وابتسم الرجل ابتسامة تضمنت فرحه ورضاه ثم وقف من غير تكلف او تصنع ٠

واذ حان موعد الغذاء كانوا يتقاطرون من كل الجوانب أربعة أربعة خمسة خمسة واحد من هنا وآخر من هناك ٠ لقد أعجبني حرصهم على الموعد ايما اعجاب ، وكان الغذاء والشاي ٠٠ ثم الغناء والاناشيد أيضاً ولكن أي غناء وأية أناشيد ؟

....

....

....

واصر الجميع على ان يسيروا على السدة المحادية ويدوروا حيث يدور النهر ومضى وهاب يؤشر لهم موضحاً : هناك في الجانب الاخر أترون هناك قصر الزهور . . . هـــذه الدورة . هناك على الجانب الاخر اراضي الشيخ .... هناك اراضى الشـيخ .... هناك اراضي الشيخ .... تلك بساتين .... وهناك سيكون مصفى النفط .... انتم سمعتم به طبعاً فاجاب كثيرون طبعاً طبعاً ....

كانت فتاة لا أعرفها ولم أراها قبل ذلك اليوم تلازم مديحة من الصباح حتى العصر ولا تفارقها وقد شاركتها في كل صورة التقطت لهما تقريباً . اما بهيجة فقد كانت تصحب الطالبة التي كانت تجاور مديحة في الحفلة الموسيقية . وكانت الفتاة الغريبة تبدو حية الى حد كبير لا تضحك بل تبتسم فقط .... وكثيراً ما تهمس فى اذن مديحـــة فتنظر على وجهيهما علامات الحد كما رأيت اثنين من الطلبة يقتربان منهما اكثر من مرة فيتكلمون جميعاً بصوت خافت .

وسألتني مديحة عن وهاب ماذا يعمل .... أين يعدل .... وأجبتها من غير أن افكر بشيء غير الجواب لذاته لا اكثر قلت انه موظف .... وهو شاعر ايضاً ولكنه تـــرك الشعر .... الا انه يقرأ كثيراً وعنده مكتبة ممتازة ....

وقبيل الغروب حين ودعناهم أنا ووهاب لحظت مدى الحرارة التي كانت تتدفق من كلماتها وهي تصافح وهاب وتشكره .

وفي اليوم التالي سألني وهاب عنها فقلت له — أخوها صديق زكي صديقي الذي حدثتك عنه وقد خرج من السجن قبل أيام .

فقال ضاحكاً وهو يضرب بيده على صدري ....

— لقد لاحظت انها . كلما اقتربت منك يحمر وجهك ويخضر ويصفر ما القضية ....

— أنا ؟! . أنت واهم .

ولكنني بحت له بكل شيء بعد ان استرسلنا في الجدل قليـــلا وبعد ان عرف انني أحبها صمت وراحت انامله تعبث بشاربه كعادته ثم قال :—

ـ اسمع .... لقد فشلت مرة في حب واحدة .... اتريد أن اضحك لكن لا.إنها على ما يدو متقفة وسوف لن يكون مصير عواطفك كمصيري .

قلت له :ـ

ـ أأحببت أنت أيضاً .

ـ ولماذا ؟ عجيبة ؟ ولكن يظهر أن الحب او هذه الكلمة اصبحت من السخف بحيث تشعرني التقزز كلما سمعتها .....

ـــ يعني لانك فشلت كما قلت ؟

ـــ لا .... لا .... كتاب الحب في مصر هم السبب في تقززي من الحب رضى الله عنه وهم السبب في فشلي أيضاً فقـــد كانت المرحومة (حبيبتي) تعجب كثيراً بطريقة الحب تلك .....

ـ وسألته مستغربا : ما القضية ؟ماتت ؟

ـ ما أ كثر ماتسأل ولكني أحب اسئلتك لاني اعشق الاجوبة كما تعلم والان هي مرحومة لانها تزوجت (ثوراً) له اهميته فى عالم الثيران وأنا احببتها لاني لم اكن اريد ان اجعلها بقرة ولا ان اكون ثوراً وضحك ضحكة عالية وهو يقول :ـ أتظن ان ليس هناك ما يشغل الانسان غير حب امرأة .

٨

لازلت حتى اليوم أستعيد يوم الجمعة ذاك واغوص بنظراتي فى التصاوير التي احتفظ بها حتى كأنها مرآة لحقيقته فلكل منا جذوره ، كالشجرة تماماً لا تؤتي ثمارها الا اذا تهيأت لها اسباب الحياة والانسان او عقل الانسان كذلك . ان شمس المعرفة اذا اشرقت على ظلمات الفكر فان ايام الانسان تضيء وتبقى كذلك ما دامت الحياة وما دام الانسان .

ولم يكن يوم الجمعة يوم متعة وتسلية ومرح فحسب ربما كان كذلك بالنسبة لي في

حينه؛انما الحقيقة غير ذلك والا فلماذا لا ازال اذكره من بين مئات الايام التى طواها الظلام .

لقد استعدنا ذلك اليوم معاأنا ومديحة استعدته مع زملائي حين تحدثنا عن رحلة أخرى في الربيع حين تفتح الازهار بالوانها الفاتنة وتعطر الهواء برياحينها . ايام الربيع حيث تغني الطبيعة اغنيتها الازلية اغنية الحب والهناء والصفاء اغنيـــة الطمأنينة والامل والانسان يعيش أكثر أيامه المظلمة وهو يجتر ايام الربيع ويردد اغنيته ، لقد ظللنا نستعيده ونتذكره حتى جاء الربيع وكانت مديحة فرحة كأطياره جميلة كأزاهيره . كانت تبدو في الكلية اجمل من زهرة الاقحوان عند الشروق ، اذا ضحكت فبهجة الحمامة الطليقـة على شجرة سامقة واذا تكلمت فعطر الياسمين ينضح من كلماتها . انني لا ازال احتفظ بتصاوير يوم الجمعة ولكن صورتها تلك ستعيش لمعي الى الابد . واقبلت صباح يوم من ايام الربيع وذكرتني بالوعد قائلة :ـ

ـ محمود نحن في الربيع .

ـ صحيح وهو جميل .

ـ والسفر الى البستان ؟ متى ؟

وتذكرت .... صحيح لقد وعدتها هي والزملاء بأن يأتوا للبستان في الربيع ولكن الان وفي هذا الوقت كيف سيأتون .... لقد سمعت عمي امس ليقول« الله الستار » بالشط اليوم زيادة عجيبة ذراع ونصف دفعة وحدة الله الستار » تذكرت ذلك ايضا بنفس اللحظة فأجبتها :ـ

ـ لو تتأجل السفرة بعد يومين ثلاثة احسن .

ـ يومين ثلاثة لابأس الاحسن الاسبوع القادم ها ؟

ـ عال جداً .... اتفقنا .

وانتشر الخبر في اليوم التالي ومرة اخرى كان البعض يستعيدون (يوم الجمعة) وفي

العصر حين عدت للبيت رأيت ان مياه النهر تنذر بشر مستطير .... فما اسرع ما ارتفع الماء حتى لم يبق ما يصده من السدة سوى اقل من المتر .... كان النهر يبدو عريضا جداً كما كان فى العام الماضي تماماً ولكنه اليوم يجري مرعداً مزبداً وقد استحال لونه الازرق الصافي الى لون الطين الاحمر وهدوؤه حين كان ينساب عذباً رقراقاً فى الصيف انقلب الى هدير مرعب الشد ما شعرت بالخوف يهزني وأنا ادخل البيت وهديره لا يزال يئز في سمعي وبعد العشاء كنت أرقب من النافذة الشاطيء الاخر الذي يبدو مظلماً كالهم ، صامتا كاليأس ، موحشاً كالمقبرة ، وسمعت عمي يناديني :ـ

ـ محمود سمعت نشرة الفيضان ؟

ـ لا عمي بعد خمس دقائق

ـ تعال خبرني بعد ما انتهي من الصلاة

ـ طيب

وسمعت نشرة الفيضان ولم تكن تبشر بخير حتى المذيع كان يتكلم كالخائف او هكذا خيل لي فلم يقل غير كلمات قليلة هزت كل اوتار القلق والخوف في نفسي .... « لاتزال مناسيب المياه ترتفع في اعالي النهر .... والدوائر المختصة مهتمة بأتخاذ التدابير اللازمة .... وعمال مديرية الري يقومون بتقوية السداد الخ ....

واغلقت الراديو حين سمعت لغطا على السدة وفتحت النافذة فاذا عمال الري يحملون الاكياس الفارغة و (المساحي) . . ورجعت لعمي الذي ناداني فأخبرته بكل شيء وسألته :ـ

ـ لكن يا عمي هذي زيادة عجيبة ! في ثلاثة ايام يرتفع الماء بهذه السرعة .؟

ـ الله كريم يابني كل سنة ياخذ الشط حده وينزل .... الله وحده هوالستار .

كنت اريد الذهاب الى وهاب لمفاتحته بمسألة مجيء الطلاب للبستان وكيفية تدبيرها وما كدت امضي خطوات في طريقي اليه حتى جائني صبي في التاسعة ارسله وهاب

الي يطلب حضوري عنده لانه مريض واسرعت اليه . كانت حرارته مرتفعة لاصابته بالتهاب اللوزتين الحاد . وفيما كنت جالسا بقربه سمعت طرقاً على الباب فابتسم وهاب وقال لي :- تسمع ؟ هذا ابو زيدان .... جائني بالبنسلين .... اســمع سيصيح ويدق جرس الدراجة وسمعناه فجأة يصيح :- بالعجل «أخصموها» .... ثم شرع يدق جرس الدراجة التي يتنقل عليها فى ازقة المحلة الى بيوت المرضى . وأقبل الرجل وكان قصيراً اسمر البشرة فى حوالي الستين وقد صبغ الشيب رأسه ووضع حقيبته على الكرسي الذي تركته له ثم أخرج ادواته وبعد ان انتهى من حقن الدواء نظر الي وهاب وضحك قائــلا : اضحك اضحك .... بسيطة .... الصبح اتصير مثل الاسد وابتسم وهاب مجيباً - اشكرك ....

ولكن الرجل عاد فقال تشكرني ؟ هه ياريت كل الناس تشكرني .... أتعب واروح وأجي واسهر للفجر وتالي صفر حتى من (اشكرك)

فقلت له : لكن الفضل مايضيع

- تمام عمي تمام .... لكن اريد اعيش .... وكلهم مفاليس وكلبي يتكسر عليهم آني صاحب وجدان .... الفقير ما عنده أحد غير الله .... منو عنده وحين اقترب من وهاب وكنت بجانبه شممت رائحة الخمر من فمه فدهشت كيف يستطيع وهو سكران ان يؤدي مثل هذا العمل من غير احتمال للخطر وكتمت شعوري حتى انتهى بلحظة وبعد أن اعاد ادواته فى الحقيبه التفت الى وهاب وقال « الله يعافيك ولو الحساب بينك وبينه موتمام لكن هو رحيم » وودعته الى الباب وفي اليوم التالي سألت وهاب عنه فأخبرني أنه مدمن على الخمرة منذ أيام شبابه ولا يستطيع ان يواجه الليل الا وقنينة الخمر في جيبه ان اهالي المحلة يحبونه كثيراً .... وهو لا يتورع أن (يعفط) بوجه أي كان فى القهوة او الشارع من غير أن ينزعج منه أحد .

وفى الصباح عند ذهابي الى الكلية وكنت في سيارة (الباص) الاهليــة الصغيرة التي كثيراً ما يصطدم رأس الراكب بسقفها وهي تسير فى الشارع الوعر وكان الركاب

يتحدثون عن « الشط » الذي اخذ يهدد الناحية كلها فسمعت أحدهم يقول لصاحبه بلهجة فلاحية :ـ

ـ صبح زايد نص ذراع الله الساتر

ـ والله سمعنا البارحة يكولون الحكومة راح تكسر الداودية

واشترك ثالث معهما وكان جالساً في المقعد الخلفي فأجاب :ـ

ـ كل سنة هالمساكين طايحين بيها يزرعون ويتعبون وتالي بالشط .

واذا بآخر يندفع بحماس قائلا :ـ

ـ والله العظيم هالمرة راح ينامون على السدة ويموتون أنفسهم ، هالسنة زرعهم جاوب .... والله خطية شنو ذنبهم

واعترض آخر .

ـ يعني قابل تغرك كل الناس أحسن ؟

فأجابه المتحمس بعصبية .

ـ لا .... كل سنة يزيد الشط واكسروا الداودية ويزيد الشط واكسروا الداودية . هذا احسن ها ؟

يعني مو اوادم ؟ تعبهم وزرعهم باي دين يروح بالشط ها ؟ .... وكاد الجدال يتطور الى معركة فيما كانت السيارة تسير مترافقة فوق ارض الشارع وكان بين الركاب الذين يزيدون على العشرة رجل مسن ظل صامتاً لم يتدخل الا حين كادت العاقبة تسوء فقال :ـ

ـ على كيفكم يابه .... على كيفكم .... الحكومة تعوضهم ميصير تخلي الناس ربي كما خلقتني .

فأجابه الاخر ساخراً : تمام !!

ووقفت السيارة لينزل منها أحد الطلاب فاذا المضمد (ابو زيدان) يصعد اليها

ويغمر الجو الذي بدأ يتكهرب (بعفطاته) المتابعة وتعالت القهقهات والضحك ومرت سيارة تحمل عمال الري فأرسل ابو زيدان عفطة كانت من العنف بحيث تطاير الرذاذ من فمه الى وجوه القريبين منه وانا منهم . ثم قال كأنه يودع عمال الري الذين ابتعدت بهم السيارة « كل ما دجلة فاض وزاد إحنه نكوم نسوي سداد » .... وكنت أسمع تلك الكلمات من الراديو فلا تترك فى نفسي شيئاً كما تركته حين القاها ابو زيدان بأسلوبه الخاص واتبعها بعفطته المعهودة . وقصصت على مديحـــة كل ذلك ولكنها لم تضحك بل صمتت قليلا ثم قالت :ـ صحيح من حقه ... هذا علاج برجوازي .

وكانت تقصد أبا زيدان بكلمة (من حقه) ولكني لم افهم « برجوازي » هـــذه وطالعتها مشدوها فى بلاهة صامته فتابعت :ـ

ـ الناس يعرفون أنه علاج سخيف يعرفون جيداً انه لا يفيد .... وظلت الكلمة ترن في اعماقي تاركة تفسيرات باردة ما تلبث أن تموت . لقد مرت هذه الكلمة أمامي في سطور بعض الكتب التي قرأتها هي وغيرها من الكلمات مثل فاشستية .... مكيافيلية .... شوفينية وغيرها وغيرها وكنت أقف قليلا أمامها ثم اسجلها فى ورقة واضعها في جيبي آملا ان اعرف معانيها بالضبط . أما ان تستعمل هذه الكلمات بمثل هذه السهولة وكما استعملتها مديحة فهذا ما اشعرني بأني لا ازال صغيراً تافهاً .... لقد اخفيت عنها جهلي لحقيقة معاني مثل هذه التعابير وما كنت اعرف أن العيب الحقيقي هو أن اجهلها . وحتى وهاب حين كان يتحدث تمر هذه الكلمات على لسانه سريعة من غير أن يسألني مرة هل اعرف معانيها وقد دفعني ذلك الى البحث عنها بنفسي .

ورغم ان موعد الامتحان كان قريباً فلم استطع المذاكرة بعـــد أن رأيت عصر يوم مياه النهر تطفح على سطح السدة كلما هبت نسمة خفيفة وكان أبناء المحلة يعملون مع عمال الري . يحضرون التراب على دوابهم وبعضهم يملاء الاكياس الصغيرة ليضعها الاخرون فوق حزم الحطب وكان ذلك عملهم الوحيد لصد هذا المارد الجبار . وخرجت

لارى ما يجري فوقفت مسنداً ظهري الى الباب ، كان النهر يبدو عريضاً كالبحر وقلت في نفسي أيكون الدمار مصير هذه الارض الجميلة الطيبة ، والبساتين والمزارع . ثم الناس .... اين يذهبون وكل بيوتهم من الطين ... فالقصور هنا قليلة وكيف ستسع كل الناس وهم حوالي العشرة الآف . كان الخوف يرسم لي اشباح التشاؤم المرعبة ! الى اين يذهبون والماء يطوقهم من ثلاث جهات وبغداد .... بعيدة .... جداً وماذا يفعلون في بغداد الصاخبة اللاهية التي تركتها عصر اليوم غير آبهة بهذه القلوب الواجفة والوجوه الشاحبة.

....

كانت بعض النسوة جالسات على السدة بكآبة ينظرن الامواج المتلاطمة ويتضرعن الى الله بأدعية كثيرة . وكانت عوامات الجسر الذي رفعه الانكليز بأنتهاء الحرب تبث الفزع في القلوب بذلك الهدير المزعج الذي يتسبب من ضغط الماء المندفع بجنون.وانطلق من الجامع القريب صوت المؤذن لصلاة الغروب وكان البعض ينفض يديه من التراب ثم يذهب للصلاة وسمعت رجلاً عجوزاً يقول لاخر :ـ

ـ ولله ياحاج الشط يخوف اليوم!!

ـ الله كريم يستر علينا بستره الجميل .... وين تروح العالم ؟

ـ الله كريم المكتوب مامنه مهروب يرحمنا برحمته الواسعة سبحان الله ، بين سنة وسنة . قادر الله .....

ومررت بأثنين آخرين وسمعت أحدهما يقول لصاحبه :

عباس الامر بيد الله لكن اكول ليش بسنة اللي الزرع عندي يجاوب يزيد الشط ويتخبل .

فنهره صاحبه قائلا :ـ

ـ لاتكفر . لاتكفر .. قابل انت وحدك ؟ لوالله يريد يضرك ؟ حاشا .

ـ لا .... لا .... صدك كل سنة « طحينج ناعم على هالرتة »

ـ يعني شفكرك ؟ .متستغفر ربك يامذهبي لا تكفرنا خلي نشتغل

وعدت للبيت لاستمع لنشرة الفيضان من الراديو . وكان عمي يحاول أن يخفي عني قلقه بصمته المطبق وهو يتنحنح بين فترة وأخرى . كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل والارق لا ينفك يلقيني من فكرة الى فكرة وانا اصغي للحراس وافراد الشرطة الذين يروحون ويجيئون على السدة وكانت تتناهي الى سمعي صيحات من بعيد لا تلبث أن تموت في ظلام الليل المضطرب من هدير عوامات الجسر وفجأة سمعت طلقاً نارياً حسبته من فعل النواطير في البساتين ولكن مالبث أن تبعته طلقات أخرى متعددة متوالية كأن معركة قد نشبت فأرتجف قلبي هلعاً واشعلت المصباح فأذا عمي يناديني :ـ

ـ محمود وين رايح

ـ اريد اشوف

ولكن زوجته شرعت تبكي وتتوسل الي.... لاتطلع يا أبني .... لاتروح عيني. الا انني رغم الحاحهم ارتديت ملابسي وكان صراخ النساء قد بدأ يتعالى من هنا وهناك . كنت أريد أن اذهب الى الشارع كي استجلي الامر الا أن عمي الح قائلاً :ـ

ـ ابق هنا .... لا تطلع .... أنا رايح وارجع بعد شويه

ومرت دقائق واذا عويل النساء يطغي على هدير العوامات ويرتفع ضجيج السيارات في الشـــارع القريب وأخذ الناس يتراكضون وهم يصيحون « كسرة .... كسرة .... كسرة .... » كنت أريد أن اعرف من اية جهة حدثت هذه الكسرة وكل من اسأله حين يمر بي يجيبني « والله ما ادري بعد » واقبل عمي يبسمل ويحوقل ويتعوذ من الشيطان ويفرك كفيه ببعضهما وقبل أن اسأله قال :ـ

ـ انكسرت السدة من ظهر البساتين .... لكن بسيطة الله كريم الناس ركضت

لها

- واذا توسعت ياعمي

- لا .... لا سامح الله .... الله ما يخلي حمل مطروح .... بسيطة .... مسألة بسيطة

و « ظهر البساتين » هو جانب النهر الذي رأيته مع الطلاب يوم السفرة ورأيت قوة انحدار الماء بعد أن ينفلت من انحناءة (الدورة) وحين كنا نمشي على السدة بدت لنا ارض البساتين منخفضة جداً وتملك الهلع قلبي وأنا اتصور الماء ينحدر نحو البيوت بعد أن يجتاز البساتين بسرعة ولحظ عمي أني ارتجف فحاول أن يهدىء من روعي ولكن طرقاً على الباب اشتد كان الناس يحملون اطفالهم وما خف من حاجياتهم وهم يهرعون الى القصور المحاذية للسدة حيث بيت عمي ينتصب بينها بعناد بنائه القديم . وكان عويل النساء وبكاء الاطفال والاف الاستغاثات والنداءات تمتزج كلها فتترك الانسان في دوامة عنيفة من القلق والحيرة ومع ذلك فقد أخذت أنا وعمي وزوجته نقلب أثاث البيت بعضه فوق بعض لتتسع الحجر القليلة للافواج التي تتراكض مذعورة نحونا .

ولازلت اذكر تلك الدموع الصبية التي كانت تذرف على المزارع والبساتين التي ستتلف أثمارها والبيوت التي ستتهدم . وفي تلك الساعات القلائل ادركت أشياء لم تكن قد مرت علي حين سمعت امرأة تقول لزوجها :-

- ابو محمد ليش غفت الطحين

- اسكتي يابومة ارواحنا وارواح الناس أوجب

وحين دخلت في تلك الساعة امرأة عجوز يحملها رجل ضخم على كتفيه . وأمامه صبي فوق رأسه قفص بداخله دجاجات . كانت تدعو له بطول العمر والتوفيق وهو يجيبها ضاحكاً .... اذا باقي شيءأروح أجيبه ؟ فأجابته « لا .... لا يابني لا ما عندي شي .... الله يوفقك الله يحفظك » وانزلها من على ظهره ثم قال لي « من فضلك أفندي ساعدها .... ماعندها أحد » وخرج مسرعاً لينقذ غيرها . كانت العجوز تردد وهي تنوح « ماتم اللي غير البيت ياجار يابني . » « والبيت راح بروح يا جار يابني » وفهمت فيما بعد أنها فقدت

ولديها جبار ومحسن بعد أن صرعهما السل وهما في زهرة العمر .... وفقدت زوجها الذي مات حزناً على ولديه ولم يبق لها من وسيلة للعيش غير هذه الدجاجات التي حرص ذلك الشهم على احضارها معها . أأنسى ذلك ؟ .... كيف أنساه ؟ وكيف أنسى ذلك الصباح حين اشرقت الشمس على مئات الناس والحيوانات كمشردين أجلتهم عن وطنهم حرب ضروس وهم متكدسون على السدة وقدجعلوامن ملابسهم ستائر كبيوت الشعر ليتستروا بها . وكيف أنسى العمل الذي قاموا به مع الشروق .... حين جعلوا من الشارع الضيق الذي يشق القرية الى نصفين خط الدفاع الاول والاخير بينهم وبين الماء الذي كان يكتسح بغير اكتراث كل ما يعترضه ليلتقي بصاحبه من الجهة الاخرى وكأنهما جيشان منتصران يبتغيان احتلال مدينة اما الفلاحون والعمال واخوتهم واولادهم فقد ثبتوا الجيوش الزاحفة !! وكان الصراع مستمراً حتى الغروب والماء يتجمع ليفتح ثغرة في السـد الصغير الذي اقاموه على الرصيف ليحولوا بينه وبين النهاية المحتمة .... الموت .

وفي تلك الليلة اعلنت العصيان على عمي مرغماً وذهبت لاحمل التراب مع وهاب وجماعته . كان العمل مقسماً بطريقة حتمتها ظروف المعركة فكان سكان كل زقاق يهدمون بعضها من بيوتهم لتقوية السد على الرصيف ، الرجال والنساء العذارى والامهات ، والصبيان وحتى الاطفال والزغاريد ترتفع في الفضاء مشجعة على المقاومة . وكانت البيوت تتهاوى في الجانب الاخر من الشارع ومن بين البساتين تاركة دوياً هائلا ويرتفع عويل من هنا وهناك ثم تعقبه زغاريد كأنها تصر على سلامة ما تبقى من البيـوت التي اكتظت بكل ما يملكه اهل القرية .

واشرقت الشمس في اليوم التالي والشارع يبدو من بين اشـجار الكالبتوس على جانبيه كجدول لطيف وكان لابد ان يكون السد الصغير الذي أقيم على الرصيف بمستوى السدة الكبيرة في الارتفاع وقد تم لهم ذلك فانتصروا . وكانت الخطوط التلفونية والتيار الكهربائي قد انقطعت ولم يبق من طريق غير السدة التي أمام بيت عمي ورغم ذلك فقد

توارد الانباء بأن الحكومة كسرت سدة الداودية وسينخفض مستوى الماء .لقد سمعت بذلك وأنا اتناول فطوري مع وهاب وجماعته ، كانت النساء تحمل الى العاملين اقداح الشاي والحليب والخبز أيضاً مع الاف الادعية.

انقطعت عن الكلية اسبوعاً كاملاً . وحين أخذ (العدو) يتراجع أخــذ الناس يفكرون من جديد في أشياء كثيرة . كانت تدور على السنتهم كلمات .... ففي اليوم الرابع عندما أعيد التيار الكهربائي اذاع الراديو بياناً بأن المياه ستستمر بالانخفاض وكان قريباً منه رجل يغمر الحزن وجهه فقال متهكماً ، يخاطب نفسه :ـ

ـ رهنت الحوش على خمســين دينــار بالفايز وزرعت وراح الزرع والبيت

وحاولت أن أهون عليه فاذا به ينفجر ونظراته الحادة مصوبة نحو الراديو وكأنه يخاصم انساناً أمامه قائلا :ـ

« هجمتو بيوتنا الله يهجم بيوتكم . » ثم التفت الي قائلا : قابل راح يشنقون المهندس؟ حرام !! كل شي ما يصير عليه ! أواعدك وهــه اشوف

وكنا قد سمعنا في تلك الايام أن سبب انكسار السدة هو أن احد مهندسي الري اهمل انبوب احدى المضخات فتسرب الماء الطاغي من الفراغ الذي تركه الانبوب بعد ان أمر المهندس برفعه فكان أن هجم المارد الاسطوري على القرية .

٩

وذهبت للكلية وكانت الصحف ما تنفك تكتب عن الفيضان الذي أخذ يهدد بغداد بعد ان غرقت (الكرادة) وكنت ابحث في الصفحات عن شيء مما جرى امام سـمعي وبصري فلم أجد غير الكلام عن التعويضات وشرحت لمديحة ولبعض الطلاب كل شيء وكان النقاش يحتدم حول مسالة المهندس الذي قيل انه هرب الى باريس كما اشيع في حينه

ذهبت الى الكلية بعد أن خلفت ورائي وجوها صبغها الحزن بعبوس دائم وعيوناً

باكية تلاحق حطام البيوت العائمة فوق المياه التى بدأت تخضر كمياه المستنقعات واولئك الناس الذين كانوا يأنفون حتى مما كانت السلطات تقدمه لهم من طعام . كانت بغداد كما عهدتها او كما كنت اراها وكأنني كنت أرجو أن ارى واسمع فى بغداد كل ما يحتوي في معناه على الاكتراث ولكن لا .... لقد كانت لا مبالاة صفيقة تطالعني فى كل خطوة خطوتها الى الكلية . وكان رماد الخيبة يتراكم شيئاً فشيئاً على حزني . الا انني بعد أن قرأت افتتاحية الجريدة التى اعتدت قراءتها عن الفيضان ، أفقت وكأنني كنت راقداً .... كانت الحرارة المنبعثة من السطور أشد وأقوى من الحماس والالم ألذي حفرت له تلك الحادثة اخاديد في عواطفي وفى تفكيري . لقد كنت اجهل اشياء كثيرة ، أذن ، فبغداد لم تكن في الحقيقة كما توهمت اول الامر !

وكنت مرة أصف لبعض الطلبة وكانت مديحة بينهم ، بعض المواقف المشرفة التي وقفها الناس هناك واذا بهجت يقبل نحونا ويدعوهافأستدارت اليه ثم ذهبت بخطوات رشيقة هادئة نحوه ، ولم استطع اتمام كلامي الا بعد أن كاد يفضحني الاضطراب الذي أخذت كلماتي تتعثر به وحاولت أن افلت منهم الا أن احدهم قال مبتسماً بعد أن التفت قليلا وراءه :-

- تبين مسألة الجماعة راح تنتهي .

قال ذلك وهو يشير بأبهامه الى حيث مضت مديحة وبهجت . وسألته وكأن الأمر لا يعنيني أبداً .

- أسمعت شيء .

فأجاب ضاحكاً :-

- ظل واحد ما سمع ، ألجماعة على وشك الخطوبة .

وعقب آخر :-

- كل خطوباتهم تصير بالعطل ويحرمونا من .....

فقاطعه ثالث بمرح

- والله العظيم لازم ناكل حلويات على حساب واحد ياهي ياهو .....

وغادرت الكلية ظهر ذلك اليوم وأنا اسأل نفسي ببلاهة . متى تعرفت به ؟ اني لم أرهما في الكلية معاً الا نادراً .... وفي اكثر الاحيان كانت معي .... قريبة مني تكلمني .... ضاحكة مرحة .... الهذه الدرجة أحبته .... ألم تعرف أني أحبها .... أتكون خدعتني بهذه الطريقة اللئيمة أتقتلني بهذا الاسلوب الصامت .... هكذا من غير أن يعرف أحد .... ؟ »

وفي المساء كنت أقرع نفسي والومها .... لماذا لم أفض لها بشعوري لماذا لم أبح لها بحبي ربما لم تكن تعـــرف عن احاسيسي شيئاً ولكن عدت مرة أخرى والالم يغلي في روحي ورغبات خبيثة تتصارع في فكري المشوش حتى تمنيت ان اخنقها .... او أقتل ذلك الطالب الذي لم اتصور يوماً أني سأقضي الليل وانا اتفنن في التفكير بأساليب حرمانه من الحياة . ومع الفجر اذ تناهى الى مسمعي صوت المؤذن تركت فراشي ومضيت الى المكتبة كنت أريد ان أريح أعصابي قليلا .... أن لا أفكر .... أن ابعد عني تلك الاشباح السود التي ظلت ترتسم في الظلام أمام بصيرتي وامسكت القلم لاكتب لها شيئاً وسودت أكثر من ست صفحات ثم مزقتها وعدت اكتب من جديد وسمعت عمي يناديني وهو يقول :ـ

- محمود بابا سهران ليش ؟

- قبل شويه انتبهت والامتحان قريب واريد ادرس .

- لكن السهر يضر بصحتك ابني .

ولم اذهب الى الكلية .... بل رحت ادور في الشوارع المزدحمة وحين وقفت على الجسر رحت أنظر الى المياه الحمراء والزبد المندفع مع الامواج بسرعة .... ولم أفكر تلك اللحظة أن انتحر أبداً بل كنت اقول يجب ان اسلمها الرســـالة اولا .... ان حب الحياة

لا يموت في الانسان رغم الموت .... وحتى الجبناء الذين ينهزمون أمام اتفه المشـــاكل يحاولون الارتماء في احضان الموت ، حتى هؤلاء ســـرعان ما يعودون ليقاوموا بالرغم منهم .... ان الحياة غالية .... مقدسة .... وعلام يتخلص الانسان منها . . أعبء ثقيل هي ؟ لكم يكون الجسد تافهاً بعد الموت .... لقد رأيت جثثاً كثيرة في المستشفى وفي قاعةالتشريح في كلية الطب .... وكاد يغمى علي في المرات الاولى اذ رأيتها ولكن العادة قتلت في اعماقي كل شعور بالخوف من رؤية انسان ميت . إنما الاحساس بأهمية الحياة .... لايزال يشدني الى هذه الارض التي صرت ادرك معنى قدسية حياتي عليها .

كنت أسير في طريقي الى الكلية بعـــد أن تركت ورائي الجسر .... والامواج المتلاطمة والزبد الطافي المندفع معها بعنف

كنت أسير واستعيد في خاطري السطور التي كتبتها لمديحة .... كنت مصمماً على أن أن اعطيها الرسالة بيدي .... ولم أحسب أي حساب لما عسى أن تسألني . وصلت الكلية قبيل ثالث محاضرة وما كدت أدخل النادي واجلس متعباً لا يوحي مظهري بغـــير الهم واليأس حتى اقبلت مسرعة نحوي وابتدرتني من غير أن تلحظ شيئاً ما في وجهي ....

- محمود .... انت هنا .... عظيم ....

ولم أجبها بل ابتسمت فقط لكنها عادت فقالت بنفس المرح ونفس الابتسامة :ـ

- أسمع .... لازم تجي للسينما اليوم .... تجي ؟ لازم تأخذ بطاقة ....

- أي سينما

اللجنة الفنية رتبتحفلة سينمائية .... والفلم ممتاز .... لشارلي شابلن تجي طبعاًها؟

- طبعاً طبعاً والبطاقات ؟

- بهجت يبيعها خذلك واحدة منه

- بهجت .... أي بهجت ....

وضحكت وهي تقول مندهشة :ـ

ـ بهجت ؟ أما تعرفه ..... على كل حال راح أجيب لك واحدة خذ كتابي عندك .... لحظة واحدة .

وتركت كتابها معي ومضت لتأتي لي بالبطاقة وأسرعت فدسست رسالتي بين طياته وما كدت أتناول البطاقة منها واعطيها الكتاب حتى تمنيت لو ان لي قوة خارقة فأختفي .... او اقفز من مكاني عبر بناية الكلية حيث استطع أن اختفي في زحام المدينة وأخرجت ثمن البطاقة من جيبي فأذا بها تقول مستنكرة :ـ

ـ لا ..... لا ..... هذه المرة على حسابي .

واجبتها مستغرباً بلهجة بلهاء

ـ شكراً .....

ـ يعني ترفض ؟ أقول لك على حسابي ....

ودق الجرس وشرع الطلاب يتجهون نحو قاعات الدرس . كنت أستعجل الدقائق لابتعد عنها وخشية أن تحس بوجود الرسالة في حضوري ولكنها مضت بعد أن شكرتها بسرعة ويدها ممسكة بالكتاب بحرص ، او هكذا خيل الي . كنت أخشى أن يفلت الكتاب من يدها او تنزلق الرسالة على الارض !!

....

لم اكن أرى وهاب كثيراً في تلك الايام وكنت استغرب منه التهرب من الجواب كلما سألته عن سبب تغيبه يومين او ثلاثة من غير أن اراه لا في القهوة ولا في البيت وفي عصر ذلك اليوم لم أره أيضاً فاضطررت أن اذهب وحدي للسينما وعندما وصلت كانت صالة السينما مكتظة بعشرات الشباب كان اكثرهم من طلاب كليتنا وكانت وجوه البعض الأخر غريبة علي كانوا واقفين على رصيف الشارع أمام ابواب السينما وفي

الممر المؤدي الى صالة العرض ، والتقيت بواحد من طلاب صفي فصعدنا سوية الى الطابق الثاني حيث كانت تجلس مديحة وبجوارها بهجت ذلك الشاب الذي كدت أجن ليلة امس وأنا اعمل ذهني بحثاً عن وسيلة لقتله ، وما كدت أراه حتى عاد الدم يغلي في عروقي وشحنات من الألم والشقاء تكاد تنفجر في قلبي وعلى لساني واقتربنا أنا وصاحبي من صف المقاعد حيث يجلسان وكان المقعد الذي على يسارها خالياً وحييتها وكدت الحق صاحبي الذي سبقني عجلا الى بعض المقاعد الجانبية الخالية ولكنها أشرت الى المقعد وهي تقول انفضل اقعد وجلست من غير أن افكر لماذا وكيف ؟ وكأني نسيت الرسالة ونسيت هذا اللص الذي بجانبها، اللص الذي سرقها مني فسرق هناءتي وراحتي الى الابد كما كنت اعتقد ، ومضت لحظات حرجة لانني لم ادر ماذا أقــول ولم التفت نحوها بتاتاً ، لحظات من تلك التي تنطوي في جزيئاتها هموم الليالي وافراح الايام والتفت فجأة اذ سمعتها تقول له :ـ

ـ بهجت انت ما تعرف محمود ؟ أتارفكم

ومد الى يده مصافحاً فيما تقول هي :

ـ الاخ محمود

ـ الزميل بهجت

وبنظرة سريعة اختطفت من وجهه كل المعاني التي ارتسمت على قسماته وهويقول: أهلا وسهلا ....

وهمست في سمعي :ـ

ـ محمود أنا قرأت الرسالة ولازم نتناقش بالموضوع

وابتلعت ريقي وأجبتها

حاضر

ـ ولكن يظهر انك عصبي كثير ....

- أنا ؟ لا ابداً .... لكن ....
- على كل حال لازم تناقش في الموضوع .... لكن العصبية غير صحيحة .
- أعتقد ان الرقابة حذفت من الفلم كثيراً ....
- طبيعي ما دامت القصة ممتازة .... ماذا تتوقع ، لابد من الحذف ..

ولكن العصبية التي نهتني عن الارتماء في أتونها عادت فألهبت أعصابي فشعرت بدوار وغادرت السينما بعد ان اعتذرت بأني سوف أعود ولكن مضيت .... مضيت الى البيت .

أيمكن أن يتصور أحد أنها ستواجهني بتلك البرودة وقلة الاكتراث ؟ أنا الذي أعدت كتابة تلك السطور اكثر من عشر مرات حتى العنوان « زميلتي المحترمة » وحذفته ثم « عزيزتي مديحة » وحذفته حتى استقر قلبي على النغم الهادىء الذي تعزفه تلك اللفظة الحلوة « حبيبتي الغالية » لقد خاطبتها « حبيبتي الغالية »هكذا ... وماذا بعد ؟ وقلت لها اني احبتك منذ اليوم الذي رأيت فيه وجهك المدور المضيء ، منذ اليوم الذي اضاءت ابتسامتك ظلمات نفسي ، منذ اليوم الذي عرفتك فيه واصبح لي في الحياة أمل ..»

نعم لقد كتبت لها ذلك وكتبت ايضاً ان الحياة لا قيمة لها في نظري اذا فقدتك بل لا اتصور أني سأستطيع الاستمرار في الكلية . لقد سمعت من الطلاب شيئاً عنك وعن بهجت حين دعاك صباح اليوم فيما كنت معنا فما علاقتك به ؟ هل صحيح ؟ أأتخلى عن قلبي الى الابد .... ؟ ربما ستنزعجين كثيراً لهذه الكلمات لانك لا تتوقعينها مني ولكن ماذا اعمل ؟ ان هذه الرسالة هي الطريقة الوحيدة لاتخلص من الخجل الذي يسيطر على لساني كلما اردت مصارحتك على كل حال انا اتمنى لك السعادة اذا كان صحيحاً ما سمعت ولكنني لم اتوقع نهاية لحبي مثل هذه » ولم يكن قد بقي للامتحان سوى اسبوعين او اكثر قليلا ولكن لم يعد الامتحان يشغلني بقدر ما كنت افكر في الملاحظة التي ابداها ذلك الطالب حين قال « كل خطوباتهم تصير بالعطلة » ولم اذهب للكلية ثلاثة أيام متوالية وكلما

سألني عمي او زوجته اعتذر لهم بأن الدروس صعبة وأنا كباقي الطلاب نقطع للمذاكرة ..... ولكن كذبي كان واضحاً .... فقد بدأت صحتي تتدهور .

كنت جالساً فى غرفتي حزيناً معذباً حين طرق الباب فى العاشرة مساء طرقات خفيفة ونهضت وأذا أنا برجل يرتدي العباءة والعقال ويحييني بأسمي :ـ

ـ مساء الخير محمود

ـ أهلا وسهلا

لقد عرفت صوت زكي وقف الشعر في جسدي وكدت اشهق دهشة لولا أن تابع بسرعة :ـ

ـ عرفتني ؟

ـ اي عرفتك تفضل .....

كنت اتطلع في وجهه لاتبين زكي صديقي السجين فأذا بي أمام رجل يبدو فى الستين في وجهه غضون تؤكد عليها لحيته الطويلة وشاربه الكثيف وجسمه الذي يبدو مترهلا مكرشاً وضحك وهو يقول سأبقى يومين هنا واذهب وعليك تدبير المسألة .... ماذا ستقول لعمك ؟ فأجبته وأنا لا ازال نهب المفاجآت والدهشة :ـ لكن ماذا حدث؟ ..... وأجابني بهدوء «يعني لازم الواحد يظل محبوس بالقفص حتى اذا كان بأمكانه أن يكسر القفص ؟ لا .....»

كنا نتكلم بصوت خفيض وكانت انفاسي تتلاحق ودهشتي تزداد وهو يخرج اكوام الملابس التي لفها حول جسده ليبدو سميناً وبعد أن نزع اللحية المستعارة التي كان يبدو بها وكأنه شيخ متدين غيور .

وسمعت عمي يناديني

ـ محمود من دق الباب .

قلت متلعثماً :ـ

ـ جاءنا ضيف من الديوانية

وهمس زكي مضطربا أجننت ؟ وأخفي الملابس المزيفة تحت (القنفة) وبقى كما رآه عمي حين دعوته مرة فقضي ليلتين عندنا ورحب به عمي اي ترحيب كنت ارتعش بينما زكي لم يبد عليه انه هارب من سجن ابداً كان يتكلم بهدوء ورباطة جاش ويرد على ترحيب عمي شاكراً .

وفي الصباح بعد ان ذهب عمي الى عمله لم اجد بدا من مكاشفة امراته بالحقيقة والا فماذا يحدث لزكي لو غادر البيت في النهار وراحت المسـكينة تلطم وجهها وتبكي هامسة لكي لا يسمع (الضيف) وهي تقول :ـ اذا عرفت الحكومة شنعمل ؟ شنسوي ؟ وامام الحاحي ورجائي وتوسلي اضطرت الى السكوت بعد أن أقنعتها أنها تستطيع الذهاب لزيارة الكاظمين ولما اعترضت بأن عمي لا يعلم وعدتها أن اذهب لاعلامه .

ومضيت الى الكلية وقد تبخرت من رأسي كل الافكار السخيفة التي كانت تغمره ، مضيت وكأني أريد أن أخبر مديحة لكن زكي اوصاني أن لا يعلم أحد عدا امرأة عمي وعمي نفسه اذا كان لابد .... اوصاني وهو يقول « سابقى هنا .... بعد يومين أسافر .... يومين »

ولم تعرف مديحة بالطبع ما يعتمل في نفسي وما يشغل فكري حين بادرتني :ـ

ـ نتناقش بالموضوع وإلا لا ؟

ـ اعتقد لو في وقت آخر يمكن أحسن

لا .... لا أنت اعترفت بالرسالة أنك تستحي واسمح لي أكلمك بصراحة :ـ

ـ العفو أنا ما اردت ازعاجك

ـ أزعاجي ؟ ومن ادراك أني منزعجة بالعكس أنا فرحانة ؟ لانك شـاب طيب وشريف والحقيقة اني كنت احس منك شعوراً نبيلا ....

لقد كانت قضية زكي تشغل فكري كله وقلت لها مباشرة :ـ

ـ الواقع أني ما كنت أعرف انك تحبين بهجت ومهما يكن فأتمنى لكما السعادة
ـ أنت تبدو عصبياً مرة أخرى
ـ لا .... صدقيني اني لست كذلك .... انما هناك ما يشغل الانسان غير الحب .
ـ ماذا تقصد
ـ أقصد أني افضيت لك بحقيقة شعوري في الرسالة امس الا انني بعد أن فكرت كثيراً ندمت ولكنني سوف لن انسى انك كنت اول مصباح أضاء لي طريق الحياة ....
ـ محمود نحن مثقفون والصراحة دليل على ثقافتنا اقول لك انني لن اغير موقفي منك
ـ وماذا كان موقفك مني ؟
ـ انك شاب ممتاز وطيب واذكر ما قاله لي زكي عنك
ـ زكي قال لك شيئاً عني ؟
ـ نعم .... زكي .... انني لا زلت احترمك كأخي ليس لان زكي اوصاني بك بل لانك صرت انساناً طيباً تقدر الامور جيداً ....
ـ العفو اسمحي لي .... لم أفهم ما تعنين
ـ اقصد انك تقدر موقفي في قضية علاقتي مع بهجت لانك تستطيع أن تفسر الامور جيداً بنفسك . سأعتز برسالتك واحفظها عندي ولكن على شرط ان نبقى أخوين .
ـ طبعاً .... طبعاً لكن ماذا قال زكي عني
ـ أتعود مرة أخرى للحديث .
ـ لا .... العفو .... لا أقصد شيئاً
ـ ولم استطع البقاء في الكلية كنت افكر فيها طيلة الوقت حتى عدت للبيت فوجدت زكي يقرأ . غير مكترث لما قد يحدث له فيما لو طرق الباب شرطي ولقد طرقت الباب حسب الاشارة المتفق عليها بيننا لقد عدت قبل الظهر وكان وحده في البيت وكان ذلك اليوم الاول في حياتي الذي تغدينا أنا وزكي بعد أن طهينا الطعام بأنفسنا وكان قد تعلم الطهي

كما قال في السجن كان يتكلم باقتضاب عن السجن ومن فيه وما فيه ولم يشر الى قضيته . الى اين سيذهب وكيف ؟ .... كأنه لا يريد أن أعرف . وسألني بعد الغداء :ـ

ـ لو طرقت الباب الآن أنت ماذا تعمل ؟

ـ لا افتح حتى تختفي أنت

ـ واين ترى أختفي

وضحكنا لاني لم اكن اعلم حقاً اين يمكن أن يذهب وأنا لا اعرف أحداً من الجيران . وعاد فسألني :ـ

ـ ولو سألوك عني ؟

ـ اتظنني جباناً الى هذا الحد فأخبرهم

وهتف وهو يربت على كتفي «ممتاز .... ممتاز .... ما خاب ظني فيك» إلا ان قلبي رغم ذلك كان يخفق كلما طرقت الباب . لا سيما حين اقبلت امرأة عمي من زيارتها المباركة عصراً .... وحين جاء عمي أيضاً ورغم أني اغلقت الباب من الداخل بعد العشاء الا ان الخوف كان ينهش طمأنينتي وانا اتصور ان الشرطة ستدخل بصورة ما وتأخذ زكي وتقودني أنا وعمي الى السجن .... كنت نهب الوساوس والاوهام والحيرة والخوف . وفي الليل قال زكي وكأنه مل الحديث عن نفسه :ـ

ـ واين وصلت انت ومديحة

ـ ستتزوج من طالب في الصف الرابع أسمه بهجت

ـ صحيح ؟

ـ نعم ....

ثم تابعت ببرودة وسخرية :

ويحبها وتحبه ويحب ....

ـ محمود .... أظن أني حذرتك ، اتتذكر ؟

ـ الحقيقة كنت أجهل عواطفي .... انها التجربة كما قلت لي حينذاك .... ولكن

رغم كل ذلك فأنا لا ازال أحبها لانها شريفة يا زكي .... فتاة طية جداً .

ـ أتقول لي هذا ؟

ـ لكن زكي أرجوك بماذا أوصيتها .... لقد أخبرتني هي .

وصمت قليلاً واذا الباب تطرق بعنف وجمدت في فراشي لا أستطيع حراكاً ولكن زكي همس في أذني سأصعد الى السطح لانظر من هناك ومن غير أن تسمع لنا حركة أو نشعل ضوءاً وكأننا لا نزال رقوداً : صعد زكي ثم نزل وأخبرني أن شخصاً يقف أمام الباب عند ذاك استطعت ان أمد يدي الى الزر الكهربائي وأشعل المصباح ثم لاقول من ؟

ـ محمود انا جاسم .

وما كدت أفتح الباب حتى دخل خطوتين الى الداخل وسد الباب بيده وهو يقول:

ـ اسمع ....

ـ ماذا ؟ قل

أخذوا وهاب قبل شوية ويمكن تتحرى الشرطة بيتكم احذر اذا عندك كتب اذا عندك اي شيء آخر .

ـ طيب أشكرك .

ورجع جاسم من حيث أتى وسألني زكي عنه فأخبرته وأوضحت له المسألة. ولكنه قال مطمئناً :

على كل حال يجب أن أبقى هنا الى الفجر على الاقل وسيأتي مركب بخـــاري ويأخذني من هنا .... ما رأيك ؟

ـ سألني وكأنه يمتحن شجاعتي وجرأتي اذ لحظ ارتعاشي ولـكن سؤاله كان محيراً فبماذا أجيبه ؟ أأقول له فرحاً راضياً .... « ممتاز .... ممتاز .... » ام « لماذا تذهب ؟ ابق هنا وليكن ما يكون» لقد كان صديقي يوم كنت أمشي على ارض ملغمـة ولا ادري لسذاجتي كيف أسير والآن هاهو يتعرض للاخطار وأنا بأستطاعتي عمل شيء ما .... اي

شيء ولكن ماذا أقول له ؟ وصمت كلانا لحظات كثيرة من غير ان أجيب فتابع هو قائلاً :

ـ التحري ليلاً لا يكون الا في الاحوال الخاصة أتدري ؟ وما دمت أنا في هذا البيت فلتتوقع ذلك كل لحظة ،

ـ سأرتدي ملابسي .... ربما يأتي المركب فجراً .... وابتسمت قائلاً :

ـ أتظن أني خائف ولا أريدك ان تبقى هنا ؟

فضحك ضحكة خافتة وأجابني :ـ

ـ لا .... ليست هذه هي المسألة .... لكن حين يكون البيت بيتك أنت عندئذ يمكن أن أبقى .... ثم ان عمك لا يعلم شيئاً . كم الساعة الان ؟

ـ لكن اذا لم يأت المركب ماذا ستفعل ؟

ـ سأخبرك في الوقت المناسب .... المهم ان تنام أنت .

ـ وأنت ؟

ـ في ظروف مثل هذه يجب ان لا ينام الانسان .

ـ وكان الليل موحشاً .... كنا نصغي لصوت احدى المضخات الكبيرة التي تسقي المزارع على الشاطىء الاخر .... كان صوتها المتقطع يتناهى الى سمعنا عبر السكون حزيناً كعويل ثكلى .... وكلما تجاوب العسس بصفيرهم المزعج تزداد الرعدة في جسمي .... كنت ارتجف كالمشلول ولم ألحظ مدى القلق الذي سببته لزكي بتلك الحال التي كنت فيها وسمعنا زئير المركب القادم يمزق السكون فالتفت زكي الي مبتسماً وهو يقول .

ـ لقد جاءوا .... أتسمع ؟ خلصنا .

وفي وسط النهر فتر هدير محركات المركب قليلاً ، وكان زورق خشبي صغير يندفع في الظلام نحو الشاطىء أمام بيتنا مسرعاً ... وقبل ان يمضي زكي كرر ما اوصاني به باقتضاب وذكرني ان لا أنسى ما يجب ان أقول لمديحة ثم قال وهو يغادر البيت « أشكرك سنلتقي يوماً ما »

١٠

لم يلبث زكي غير يوم وليلة وها هي الشمس قد أشرقت مرة أخرى وكل شيء كما كان أمس ومنذ آلاف السنين ! بل وملايينها .... المياه المنحدرة الى الجنوب والافق المضيء بعد ابتسامة الفجر وزرقة السماء التي تحمل فوقها الغموض والمجهول المبهم ، كل شيء كما كان أمس وزكي لم يلبث غير يوم وليلة وها هي الشمس أشرقت مرة اخرى ولكنني لست الانسان الذي كنته أمس أبداً ، لكأني خلقت اليوم من جديد .... كان شعوري بتفاهتي يتزايد والمستقبل يدق أبواب حياتي كل لحظة .... وصدى كلمات زكي يتجاوب في اعماقي « انسان بلا هــدف معناه كائن حي فقط يعيش كما يعيش الفأر او الفيل .... الغاية .... الهدف .... الغاية الهدف .... من لا يستعمل عقله يعش ولكن كالفأر ضعفاً او كالفيل قوة ولكن لم يقل أحد ان الفيل أو الفأر يصنع الحضارة .... الذي يقال هو ان اولئك الذين عاشوا لغاية سامية وهدف نبيل هم بناة الحضارة اولئك العمال الذين هندسوا بعقولهم وعملوا بكل قواهم لنقل قيمة الانسان من الوحل الى أعلى فأعلى.... »

° ° °

ومضيت الى الكلية لا لشيء الا لاخبر مديحة بما اوصاني به زكي ، اليس من العجب أنني لم أشعر بتفاهتي قبل ذلك اليوم حين التقيت بها ولم يكن يعنيني غير أن أراها لاخبرها فحسب هي التي كنت لا أفكر إلا في ابتسامتها وفي نظراتها وفي الموسيقى اللطيفة الممتزجة بضحكتها ، هي التي سهرت الليالي اتساءل حائراً وأتقلب على سعير من الظنون

والشكوك والاجوبة البلهاء تغطي بصيرتي .... اما اليوم فما أسرع ما آخذ الندم يدفن كل ما هو تافه من أيامي في مقبرة النسيان .

كان الهم يشــــد عيني الى الارض لفراق زكي وكنت اكلمها وأنا مطرق وصوتي خافت وهي لا تنفك تستزيدني متابعة «وبعد ؟ .... وبعد؟» لقد تضاءل الخجل في نفسي كأي شيء تافه كمعنى الايام التي طواها النسيان في مجاهله . وسمعتها فجأة تنبهني .

اش ... اسكت....

ورفعت رأسي فطالعتني نظراتها القاسية الى حيث كان أحد الطلبة قادماً . قلت :

- ماذا ؟

- احذر ....

وافترقنا في تلك اللحظة .... مضى كل الى سبيل .... لكن ما اكثر التقينا بعد ذلك حتى جاءت الايام التي صرنا نتكلم عن الماضي كما لو كان يعني سوانا

ان أيام الحب قصيرة دائماً ، أما أيام الكفاح من أجل الحرية فهي تاريخ ازلي ، وهي هي الزمن .

كنت اتكلم عن نفسي ، عن ذلك الشخص الذي كتب لها الرسالة ، ذلك الشخص المعذب الحائر الخجول وكأنه شخص غيري تماماً . حتى كانت أحياناً تضحك متعجبة من مقتي الشديد لذلك الشخص ولكنها لم تذكر الرسالة أمامي أبداً حتى كدت أنساها أنا نفسي فلم أعد اذكر الشخص الذي كتبها . ورغم الصداقة التي توطدت بيني وبين بهجت فقد كانت تنتابني حالة نفسية كلما رأيتهما يسيران معاً بالرغم من الاقتناعات التي احتلت رأسي بأنني يجب ان لا أفكر بالزواج منها لانهما سيتزوجان حتماً .

وفي الايام التي تلت الامتحان كنت أقف شيئاً فشيئاً على الاجوبة التي كنت ابحث عنها . لم اسافر الى أهلي الا بعد ان اخذت نتيجة الامتحان وكنت الثاني في مستوى النجاح

وفي المدة التي لبثتها انتظر تلك النتيجة قبل سفري كنت أقضي أوقاتي مع الاصدقاء الذين تعرفت عليهم من ابناء المحلة والذين كانت تتجلى في احاديثهم روح وثابة الى الحرية وعزم أكيد على العمل من أجلها ؛ كنت أدرك ذلك رغم بساطة الاسلوب الذي يتحدثون به والمواضيع التي يتناقشون فيها وكان بعضهم ساذجاً لكأنه صورة لي أيام كنت في بلدتي لا أدري من حولي غير حاجتي الى الطعام فأجده في البيت والى الملابس فيشتريها لي أبي والاستمرار في الدراسة والنجاح ، أما ما عدا ذلك فلم يكن هناك شيء يثير في أي انفعال كما هو اليوم . كنت أذهب معهم الى البساتين التي أتلفها الفيضان فنقرأ ونتناقش وفي بعض الأحيان كنت أذهب الى بغداد لشراء الكتب او الى السينما وقد التقيت بمديحة وبهجت مرة ومرتين في السينما وكنت اعود بافكاري الى الوراء فاذا الحقيقة تتجلى لي ... ووجدتني أخلق لها الاعذار أمام عواطفي التي كان لا يزال بعضها كبقايا بركان خامد وتيقنت أن زواجهما اذا لم يكن حتمياً فهو منطقي فكل الوقائع كانت تؤكد ذلك . كانت أنانيتي تتحكم بعواطفي فيما مضى أما بعد أن انكشف لي سخف تفكيري ، إذ كنت أمقت بهجت لانه سيتزوجها فقد أصبحت أتمنى لهما السعادة بل كان شعور ما ، يسيطر علي فأتمنى ان يتزوجها في أقرب وقت . لماذا ؟ الحقيقة أني كنت ابحث عن نوع العاطفة التي كانت تدفع السرور الى نفسي ولكنني وجدت أخيراً ان العواطف لا ترحم اذا انفردت بالانسان : انها لا تلعب به فحسب بل لا تجعل منه غير كاريكتور مجسم لنكتة .

ويوم جاءني بالبريد بطاقة دعوة لحضور حفلة عقد القران فرحت وذهبت ايضاً .. وكان بعض الاصدقاء الذين اعرفهم في الكلية هناك . كانت الحفلة خالية من النفاق الاجتماعي والسخف والغرور ... لا رياء بالثروة ولا تصنع للابتسامة ولا تكلف للحديث ...

....

وبعد كل تلك الايام التي مضت ها أنذا أكتب .... عن نفسي وعن مدبحة وعن تلك الايام ولكني لم أكتب عن بهجت شيئاً .... بهجت الذي أحبته تلك الانسانة التي لا أزال أذكرها كأي كتاب ممتاز . أي رجل هذا ؟ أيمكن أن يصدقني أحد اذا قلت انه كان عدوها وأنها لم تكن تعرف ولا أنا أيضاً؟ أيمكن ان يكون عدواً لها ذلك الانسان الذي كان يبدو مستعداً لان يخاصم العالم جميعاً لاجلها. ذلك الطالب الذي كان يحب الحياة والناس ويحب الحرية والعدل : ويحبها ويكره اعداءها كما تكره هي الظلم والطغيان والخيانة.... أجل لقد خدعها ....

أيمكن ان يخدعها رجل مثله وهي الذكية التي تعرف جداً لماذا لا يخرج اخوها من السجن الا ويعاد اليه .... اخوها الذي اخبرني أنه نبهها الى أمور حسبتها في حينها هينة لا أهمية لها حتى ادركت اخيراً مكمن الخطورة فيها ، اننا نعيش تجاربنا دائماً .

أجل بعد كل تلك الايام ها أنذا أكتب عني وعنها وعن الرجل الذي لم تتوقع أن يمسخ انسانيته بنفسه او ان جذوره العميقة التى كان يستقي منها هدفه في الحياة هي التي مسخته فما عاد يرى الامور الا بمنظار ميكانيكي وقد شل المال حواسه وانتزع الغرور انسانيته ولم يبق منه غير مسخ مقيت .... يكذب ويغش لكي يحصل على المال الكثير .... أجل يغش حتى في عمله وهو صيدلي .... ولكنه وقد تنكر لكل القيم والمقاييس التي كان يتوج بها وجوده ، يوم تقدم الى قلبها بحبه ، لم يعد يفكر الا بالمال .... انه يأبى ان يتبرع لمسلول بنصف دينار قائلاً بتهكم « كل يوم مسلول ؟ » بينما يحرص على بدلة (السموكن) وعن طيب خاطر يقدم نصف دينار للمكوي ، وتقول له هي : ولكنه انسان شريف ومريض يا بهجت ،انه مسلول فيجيبها :اسمعي....لقد فات ذلك الوقت الذي كنت فيه اساعد كل الناس .... أنت زوجتي الآن وأنا لا اريد ان تتدخلي في هذه المسائل....

تزورين أخاك في السجن : تجمعين التبرعات للمسلولين وفي كل يوم اجتماع في بيتك ظاهره قبول وحقيقته .... أنا لا أريد ....

كانت مديحة تشكو لي . وقد سألتها عن جوابها لبهجت عن تذمره ذاك.... فصمتت وزفرت زفرة نارية وتأوهت وهي تقول ....

ـ ماذا .... لقد صرخت بوجهه .... ايها الجبان اللئيم لن أراك بعد اليوم

ـ وماذا بعد ؟

ـ تركته للغش وللحفلات وللمال .... المال الكثير ثم أطلعتني على وثيقة الطلاق .... وتابعت « لقد خدعني كنت أظنه مخلصاً في أفكاره ولكنه كما ترى....

١١

ها أنا أكتب بعد ان التقيت بها وانا في طريقي لزيارة زكي....وكانت ذاهبة لزيارة أخيها. وسألتني بعد ذلك :ـ

ـ وانت كيف حالك في هذه الايام ؟

والتفت اليها والالم يغلي في عروقي مما سمعته عن بهجت ثم قلت :ـ

ـ أنا ؟ في هذه الايام السود .... أتسألين ؟

ـ أقصد شغلك

ـ وماذا تتصورين .... لا شهادة .... ولا شغل .... أنت تدرين انني فصلت من الكلية

ـ أدري .... أدري آه ....

وسألتها بعد دقائق من الصمت :ـ

ـ أفكر بكتابة شيء : ماذا تقولين ؟

ـ ولم لا .... أكتب ما دمت تستطيع الكتابة

ـ ولكن ما الفائدة اذا لم أستطع نشر ما أكتب ...

ـ ولكن بامكانك ان تكتب شيئاً من الممكن نشره

ـ هذا صحيح اذا كان عن الحب ؛ وحتى هذا الموضوع لا يكتبون عنه بنية حسنة .

ـ ولماذا لا تكتب أنت بنية حسنة ؟

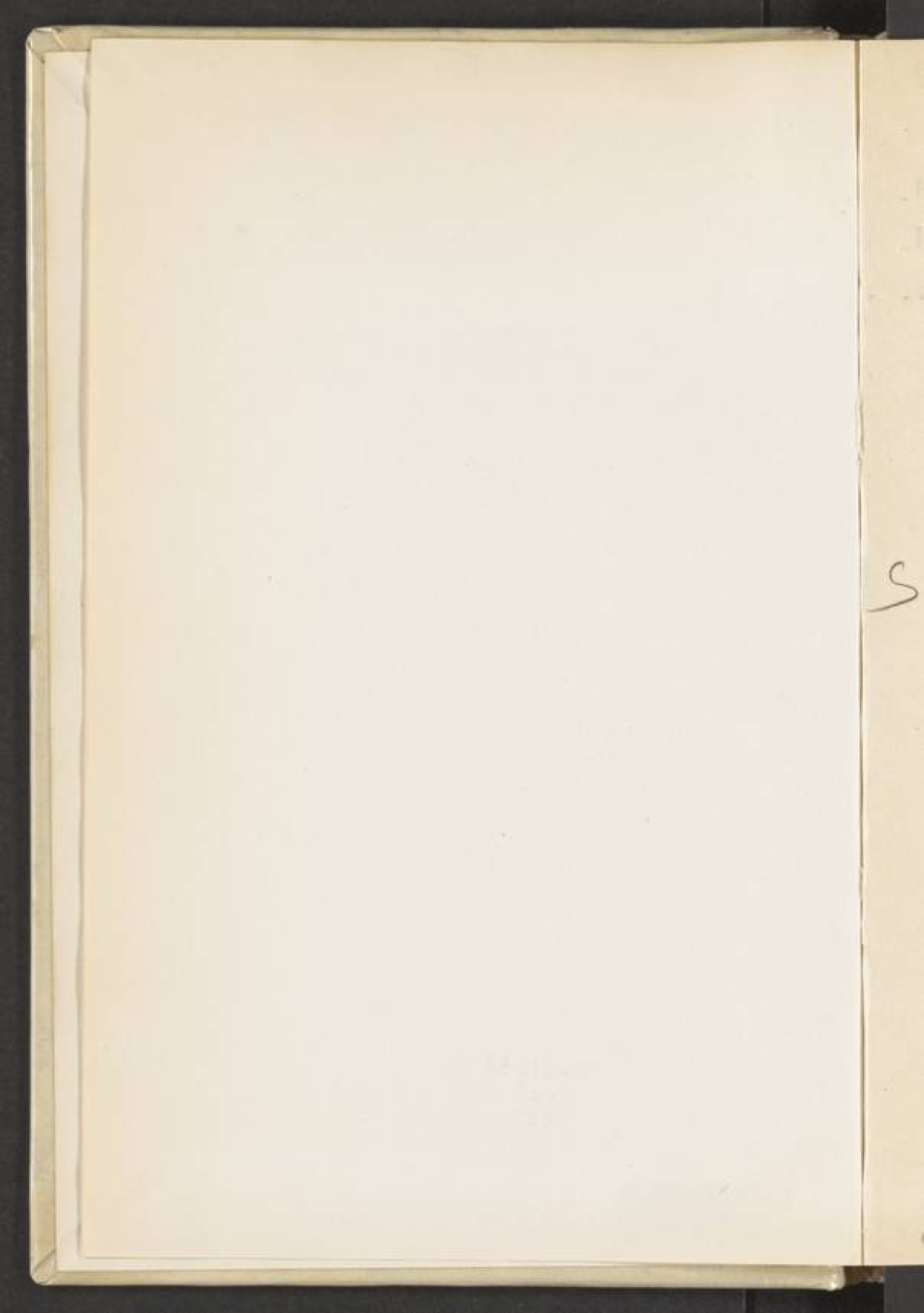
ـ أتسمحين لي ؟

ـ أنا ؟

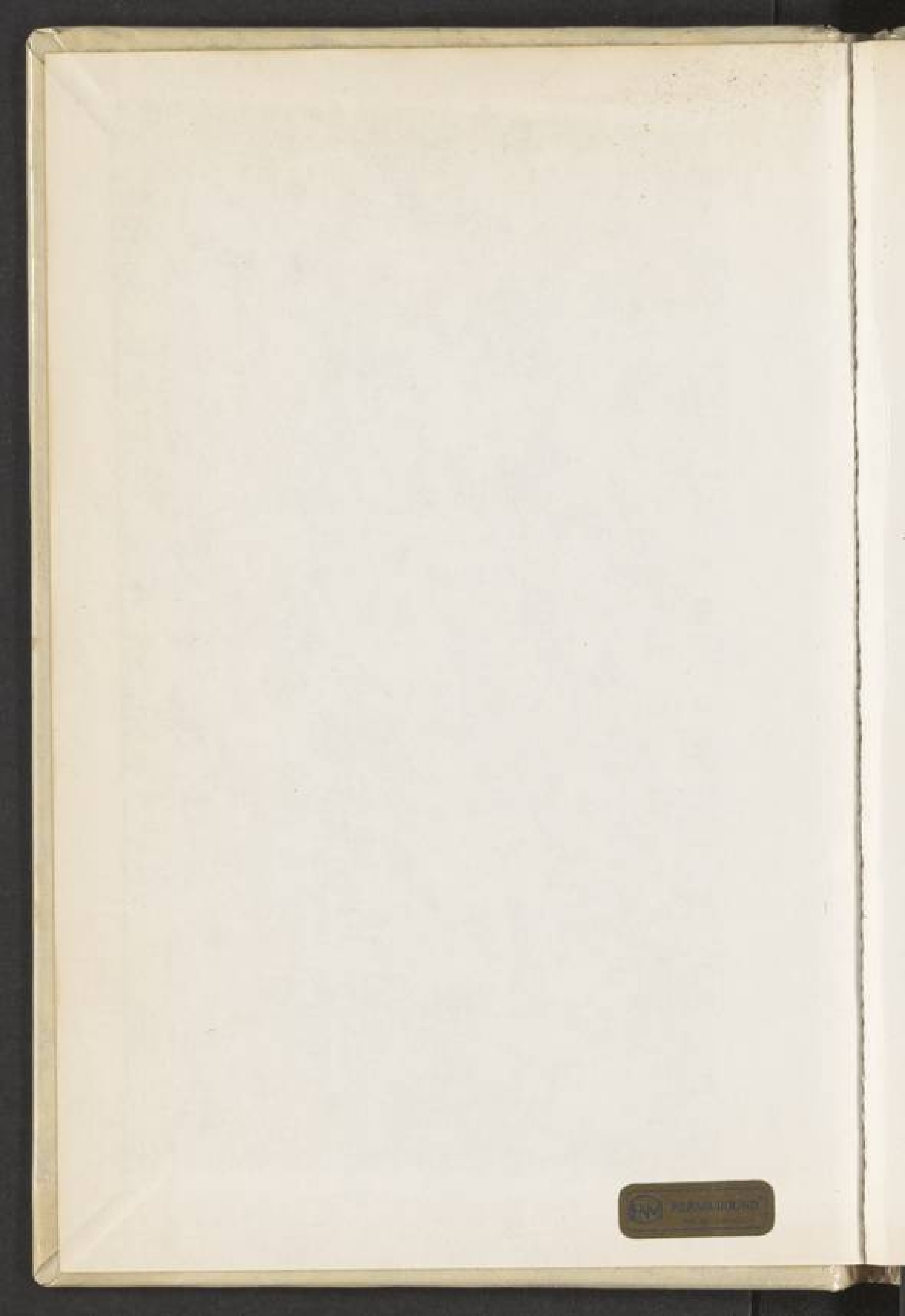
ـ نعم أنت .

وظل القطار يسير ونحن نستعيد ذكرياتنا.... وايامنا المضيئة .










NYU - BOBST
31142 01517 3100
PJ7840.A2887 A9 1961
al-Ayyam a